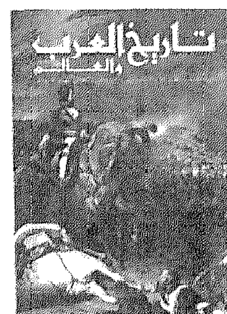
تاريخ العرب والعالم

السنة الثامنة • العدد ٥٦ • حزيران (يونيو) ١٩٨٣م • الموافق رمضان ١٤٠٣هـ



روائع الفن الاسلامي في غرناطة



الغلاف الأول

□ نابليون بونابرت يقود الفرنسيين في معركة «ريفولي» ١٤ ك٢ ١٧٩٧

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بشؤون التاريخ

العدد ٥٦ ـــ حزيران ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدما نقدا أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5 — No. 56 June 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الثورة السورية الكبرى



الحلقة الثانية

د. ادمون رباط

تعريب: د. محمد المجذوب

ثالثاً ـ القمع في حماة

وهكذا وصلنا إلى الأيام الأولى من شهر تشرين الأول (اكتوبر)، فبلغ غليان الخواطر أوجه، وامتدت الثورة باتجاه الشمال، كبقعة زيت زاحفة. وبعد عدة أيام، تفجر في مدينة حماة هياج شعبي «أثاره نقيب في الفرقة الأجنبية السورية»، هو فوزي القاووقجي[٢١].

وفي الساعة التاسعة من مساء ٤ تشرين الأول (اكتوبر)، انقض فوزي على المدينة، وكان على رأس عدد من رجاله ومن البدو الذين كانوا مخيمين في الضواحي منذ مدة، وحاول احتلال السراي حيث كان يقوم مستودع للأسلحة والذخائر. وكان النقيب يأمل في جر كل أفراد سريته إلى مسيرته، ولكنه اصطدم بقسم من رجاله كان بامرة ملازمين فرنسيين وظل، طوعا أو كرها، على ولائه. وبعد معركة حامية دامت ساعتين، احتل فوزي السراي واستولى على الأسلحة. وتوجه الثوار، بعد ذلك، إلى الثكنتين اللتين كانت تدافع عنهما حامية سورية بقيت خاضعة لامرة ضباط فرنسيين. واستغرقت المعركة الليل بكامله. وعند الفجر، دُكّت الأبواب، غير أن الحريق، الذي شب، كما يبدو، بفعل انفجار القنابل اليدوية التي ألقتها الحامية المهزومة، كان قد التهم المباني المحتلة وامتد إلى الجوار[٢٢]. وتحولت السراي، مع مبنى البلدية، وبنايات أخرى، وسوق بكامله، إلى ركام.

وفي اليوم التالي، وصلت سريتان من السنغاليين وانقضتا على المدينة بمساعدة الطائرات ودبابات الاقتحام والقذائف، فسمح ذلك باعادة النظام إلى نصابه.

ونهار الثلاثاء في ٦ تشرين الأول (اكتوبر)، أعلن بيان صادر عن القيادة العسكرية الأحكام العرفية، ومنع التجول في المدينة من الساعة السادسة مساء حتى السادسة صباحا، كما حظر الاجتماعات العامة، وأخطر السكان بأن بوسع الجنود إطلاق النار على كل شخص يخالف هذه الأوامر.

وتضاعفت الاعتقالات في الأيام التالية، وظلت، بلا عقوبة، انتهاكات المنازل والاعتداءات على الأشخاص والأملاك، والتي ارتكبت غالبا في ظروف غير انسانية. ونهار الأربعاء في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر)، فرضت القيادة غرامة جماعية على المدينة، فكان على السكان، خلال فترة ٢٤ ساعة، تسليم مئة بندقية مع كمية محددة من الذخائر، وإلا تعرضوا للقصف. وعندما استحال على المدينة الحصول على الكمية المطلوبة، منحها المستشار الفرنسي مهلة جديدة، ولكنه ضاعف مقدار الغرامة. وبما أن الشرط لم ينفذ في اليوم الموعود، فقد أمر بقصف المدينة، فهدمت أحياء بكاملها، وسقط ضحية القصف عدد غير محدود من السكان، من كلا الجنسين ومن كل الأعمار[٢٣]. ولم يكن قمع حماة إلا مقدمة للأعمال القمعية التي ضرجت (والكلمة ليست شديدة جدا) سوريا بالدماء، خلال أشهر طويلة.

وهناك وثيقة تسرد، بموضوعية، مراحل القمع الذي أعقب قضية ٤ تشرين الأول (اكتوبر). وهي تقرير موجه إلى المفوض السامي من قبل متصرف (محافظ) حماة نفسه، فيضي بك الاتاسي. وقد ورد فيه ما يلي:

«... أعتبر أن من واجبي أن أطلع سعادتكم على الأعمال الوحشية التي ارتكبت على أثر أحداث ٤ و ٥ تشرين الأول (اكتوبر). وأعتقد أن هذا الواجب يقع على كاهلي لسببين اثنين: أولا، لاعتباري مواطنا وموظفا سوريا، ثم لاعتباري مؤيدا مؤمنا بالانتداب، وحريصا على سمعة فرنسا في المشرق...

«... إن الأخطاء المتراكمة، والفظائع المقترفة، قد أدمت، بلا شك، كل القلوب في حماة، وهي فظائع لا يبررها شيء وتدينها قوانين البلاد وقوانين فرنسا.

....

«... وعندما أعيد الهدوء في اليوم التالي (للتظاهرة)، بدأت السلطة الفرنسية في حماة بإلقاء القبض على الناس واعتقالهم، دون أدنى اهتمام برأي السلطات المحلية. ولم يميز بين الوجهاء والمثقفين ولصوص حماة والموظفين، فاعتقلوا دون أسباب وجيهة في أغلب الأحيان. ولولا الخوف من أن يصبح هذا العرض طويلا جدا، لقدمت إلى سعادتكم تحليلا للدوافع التي بررت هذه الاعتقالات وكانت أحيانا قليلة الرصانة والنزاهة.

«... وباختصار، فقد فرضت على المساجين، منذ أن جرت الاعتقالات، أوضاع لا أستطيع الامتناع عن وصفها بالمخزية: ان هؤلاء المساجين الذين زج بهم في أمكنة ضيقة قد تعرضوا لأسوأ أعمال التعذيب وأسوأ أنواع التحقيقات التعسفية. وفرضت عليهم كل ضروب السخرة... وكانوا يعرون أحيانا بشكل كامل ليضربوا. وكان الضرب بالعصا يستمر إلى أن يغمى عليهم. ومن بين الذين تعرضوا لهذه المعاملة، أذكر لكم على

وجه الخصوص: شمسي بك العظم... وأبو الهدى اليافي... وقد أخلي سبيل الاثنين الآن... وكان هذا الأخير قد طلب تزويده بصحيفة، فوصل الأمر إلى الملازم (...)، وهو ضابط استخبارات بالنيابة، فأمر باحضاره وتعريته وضربه دون شفقة. وقال له: «أتريد أن تطلع على مجرى أحداث دمشق؟ حسنا! إعلم أننا سنهدم كل المساجد، وأنه لن يبقى في سوريا إلا الراية الفرنسية...». فهل هناك شريعة في العالم تجيز إنزال أعمال وحشية مماثلة وإهانات مماثلة بمتهم ما؟ وهل سينسى سكان حماة هذه الفظائع التي شهدوها؟

«وبحجة... أن رصاصة أطلقت، بعد التظاهرة بعدة أيام، على الثكنة، من أعلى المئذنة في أحد المساجد، فرض على المدينة تسليم عدد معين من البنادق في مهلة محددة. وعند انتهاء المهلة كان عدد البنادق غير كامل. وكانت النتيجة: قصف المدينة بالمدفعية والطيران...

«وهذا، يا صاحب السعادة، جزء من الوقائع التي جرت في حماة. وغرضي هو اطلاعكم على مجرى الأحداث»[٣٤].

وعلى الرغم من تأكيدات وجهاء مدينة حماة، التي كانت تهدف إلى استدرار شفقة المنتصر، فليس بالامكان اعتبار التظاهرة عملا قام به بعض البدو بقيادة فوزي القاووقجي. «إذا كان النقيب قد أحضر عددا منهم... فانهم كانوا من القلة بحيث لم يكن من الصعب على قبضة من الجنود والدرك ردهم فورا... لقد برهنت حماة دوما على كراهيتها الصارخة للانتداب... وكان من السهل إثارة تظاهرة ما في مدينة كهذه. وكان بالامكان أن تترتب نتائج خطيرة على نجاح التظاهرة وسيطرة الثورة، ولو لعدة أيام، على حماة والاستيلاء على مستودع الذخيرة فيها... لقد سلم النظام في هذه المنطقة بفضل إخفاق الحركة والتدابير القمعية التي أعقبته...»[٣٥]. وهكذا تفجرت الثورة، في حماة أيضاً، كما في كل مكان، بصورة عفوية ودون سابق تصميم.

وبعد قمع حماة، تمركز الثوار في الضواحي وحاولوا التقدم نحو الشمال بهدف توسيع رقعة الثورة حتى الوصول إلى الأماكن المقفرة لمنطقة حلب. وبتحريض من القاووقجي، هاجمت قبيلة الموالي كوكب والحمدانية، وهما محطتان على طريق سكة حديد رياق ــ حلب، وحاصرت، لمدة ساعات، معرة النعمان. ولكن الثوار ردوا عنها، كما ردوا عن إدلب، القصبة الكبيرة التي تقع على بعد ٤٠ كلم من حلب. وساعدت أوضاع الأرض، المسطحة والخالية من الملاجىء، الطيران على إنهاك الثوار وإجبارهم على الانكفاء بسرعة إلى الجنوب، وإكراه البدو على الارتداد نحو الشرق.

ولم يبق في المنطقة إلا عدة مجموعات مسلحة فقط، عدد المغامرين فيها يفوق عدد الثائرين، اعتادت، منذ عام ١٩٢٠، على التجمع في الأراضي التركية، على بعد كيلومترات من حلب، لابتزاز اموال المسافرين والتفرق عند ظهور أصغر دورية. إن حالة من اختلال الأمن النسبي كانت دوما تسود المنطقة وتسبب، منذ سنوات، لفلاحي الأرض الآمنين المقيمين حول المدينة قلقا مستمرا. وكان من المنتظر أن تؤدي جهود الثوار، عاجلا أم آجلا، ورغم هذا الاخفاق الأول، إلى إدخال هذه العناصر غير النظامية في نطاق نشاطها.

رابعاً ــ ثوار الغوطة

وخلال هذه الفترة، اشتد الغليان حول دمشق. وفي الغوطة، كانت الجماعات المسلحة، المكونة محليا والمتضخمة باستمرار بانضمام المجندين الجدد الوافدين من المدن إليها، تتصرف كأنها في مقاطعة محتلة، فتجوب الحدائق، وفي غياب الجند الفرنسيين تتحالف فيما بينها لتخضع لقيادة موحدة وتنشىء حكومة وطنية ثائرة. وأصبح سلطان الأطرش قائدها العسكري الأعلى، وتولى الدكتور شهبندر القيادة السياسية للحركة.

وغدت هذه الجماعات، يوما بعد يوم، أكثر عدائية. وباستثناء الجماعات التي كانت تضم دروز «الجبل» فقط، الهابطين إلى السهل، والتي كانت اكثر انتظاما، فان معظمها كان يختار، قادة وجندا، من بين صفوف الشعب البسيط. واحداها، وقد أصبحت اسطورية، كانت بقيادة حارس ليلي بسيط في دمشق، اسمه حسن خراط، لم يكن لديه، كمرتب يعيش به، إلا بضع ليرات بائسة.



□ فوزي القاوقجي، وهويته العسكرية.

وبعد صرفه من الخدمة بسبب تصرف لا نعلم مقدار تفاهته، سارع إلى الغوطة، على رأس بعض الأنصار الذين تكاثروا بسرعة.

وخلال العمليات العسكرية لشهر تشرين الأول (اكتوبر)، وإلى أن قصفت دمشق، فان أكثر المضايقات التي تعرضت لها السلطات كانت تأتي من جماعته. وحاولت يوما كتيبة درك، مكونة من ٦٢ عنصرا، تطويقها. فبعد جولة في القرى، وصلت الكتيبة في الليل، دون مضايقة، إلى ضاحية مليحة الغارقة في الحدائق الكثيفة. وغفا الرجال آمنين مطمئنين بعد أن أنهكهم السير لمدة ١٢ ساعة. وفي الليل أسرتهم جماعة خراط وهم في الفراش.

ويبدو أن هذه الحادثة الهزلية[٦٦] قد أقلقت السلطة العسكرية كثيرا، لاسيما وأن إشاعة انتشرت آنذاك مفادها أن جبل الدروز ترك لمصيره وجرد كليا من الجند الفرنسيين. لقد تجمع هؤلاء الجند، وكان عددهم غير كاف، حول دمشق، حيث كان كل شيء ينبىء بأحداث خطيرة، بهدف تطهير ضواحيها، إن كان ذلك ممكنا. وخلال الأشهر التالية، استخدم الجبل، بالفعل، بعد أن تخلص من هجمات الطوابير الفرنسية، كقاعدة عسكرية للثوار، وملجأ لهم عند الاخفاق، وخزان لا ينضب من المحاربين[٣٧].

وفي ١٢ تشرين الأول (اكتوبر)، غادر دمشق، بأبهة، طابور بقيادة النقيب مورو (Moreau) لمطاردة الجماعات المسلحة. وكان الطابور مكونا من عناصر هجينة يختلط فيها المشاة بالخيالة الفرنسيين. وكان يساند الطابور جراكسة وزهاء ١٢ دركيا سوريا.

وعلم، فيما بعد، أن هذه القوة خاضت، صباح ١٣ تشرين الأول (اكتوبر)، ضد حسن خراط، معركة حامية استمرت حتى مغيب الشمس. وفي اليوم التالي، أعلن بيان رسمي أن جماعة خراط أبيدت، تاركة فوق أرض المعركة زهاء مئة قتيل، وأنها لم تعد تضم إلا مئتي مناصر. وعاد الطابور منتصرا إلى دمشق، يتبعه رتل من الجمال على ظهرها ٢٤ جثة ملفوفة بسجاد مثقوب. وجاب بها الجركس، بوجوه تنضح بالنصر، شوارع المدينة لمدة طويلة. وحملت جمال أخرى غنائم وافرة، لوحظ بينها سجاد وأدوات فضية وأجهزة من



□ نسيب بك البكري: رشح لامارة سوريا سنة ١٩٢١ واحد زعماء الثورة السورية.

الحاكي (الفونوغراف). وسار في نهاية الموكب قطيع من الحيوانات والجياد والبقر. ولكي تدرك دمشق ما كان يتهددها، فقد توقف الموكب أمام دار البلدية وبقي معروضاً أمام أنظار الجمهور لمدة خمس ساعات متواصلة.

وأكد، فيما بعد، قرويون التجأوا إلى دمشق أن الجركس قاموا، في القرى التي دخلوها، ولاسيما قرى مليحة ودير مجدل ويسرين، بأعمال السلب والحرق والقتل على مشهد من الضباط الذين كانوا يقودونهم(٣٨).

وبعد عدة أيام، عرض وفد، مكون من وجهاء دمشقيين، كان بينهم الأميران سعيد ومحمد الجزائري، حفيدا البطل الجزائري عبد القادر، شكواه على بريفا ـ أوبووار (Privat-Aubouard)، مندوب المفوض السامي بالنيابة. ولكن هذا الموظف السامي أجابهم بأعصاب هادئة: «ذلك كان قرار رئيس دولتكم، صبحي بك بركات، وقد أخذه بموافقة وزرائه. وفيما يتعلق بنا فنحن من رأيه»(٣٩).

وشجع هذا الحديث، الذي تناقلته الألسن في كل مكان، أعمال القمع التي كانت تقوم بها «فرق مساعدة» تعمل بامرة ضباط فرنسيين. وعلم، بعد أيام، أن القرية الدرزية جرمانا قد نهبت ودمرت كالعديد من القرى الأخرى قبلها. وشوهدت في أسواق دمشق وبيروت غنائم الأيام الأخيرة معروضة للبيع بأبخس الأثمان(٤٠).

ويمكننا القول أن مثل هذه التجاوزات لم يرتكب إلا حينما دخل الجركس على الخط، ومعهم، بعدد أقل، المساعدون الأرمن(٤١). ولكن المسؤولين الحقيقيين هم هؤلاء الذين استغلوا همجيتهم الفطرية فسلحوهم وأطلقوهم ينهبون ويقتلون. ومهما يكن سبب هذا التصرف (النقص في الفرق النظامية أو الذعر العام)، فان استخدام مثل هؤلاء المرتزقة كان خطأ لا يغتفر. والأحداث التي ستجري في دمشق، ستكون، جزئيا، نتيجة السخط الذي سببته آثامهم التي أدت إلى إخلاء الغوطة من السكان وألقت في أحضان الجماعات المسلحة أولئك الذين كانوا ضحاياها(٤٢).

خامساً ـ قصف دمشق

تواصلت الهجمات، لعدة أسابيع، على تخوم العاصمة. وبرهنت الغزوات التي بلغت الضواحي على إرادة الثوار الثابتة في اقتحامها. وكان من السهل عليهم، افراديا، التسلل اليها في وضح النهار، والانصراف إلى أعمالهم فيها، ثم العودة مساء إلى جماعاتهم المسلحة المناوشة... وكانت المدينة الكبرى التي يحرسها عدة مئات من الجنود ويقيم فيها شعب محموم، ولكنه وطني على الأخص، توحي، إلى أقل الناس فطنة، بوجود هياج غير عادي. وكانت الخواطر التي هزتها بشدة انتصارات الدروز واتساع العصيان المباغت، والتي بقيت دون قيادة منذ فرار أو اعتقال الوجهاء السياسيين الذين كانوا يشكلون الثقل في «حزب الشعب»... كانت هذه الخواطر ترتاع لأقل إنذار. وكان يسود، هنا أيضا، شعور بأن الحرب كانت وشيكة. «وفي ١٥ تشرين الأول (اكتوبر)، أعلن أن هناك مجموعة من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ فارس ومئة رجل يمتطون الجمال، بالقرب من المدينة، حيث لوحظ كثير من الهيجان. وأرسلت كتيبة لتفريق المجموعة المشار

إليها. ولكن عددا من الدروز المسلحين تسلل، خلال هذه الفترة، إلى الحيين الجنوبيين (الميدان والشاغور) حيث يقطن القسم الأكثر فقرا والأكثر شغبا من السكان»[٤٣].

وانتشر عندئذ نبأ مفاده أن السلطات عازمة على قصف هذين الحيين لوضع حد لأعمال الثائرين الذين يتنقلون فيهما بحرية وبتواطؤ من السكان. وساد المدينة بعض الهلع. وتوجهت العائلات القادرة نحو بيروت. وصدر بيان رسمي ــ وهو أمر مستغرب ــ نفى النبأ وحاول منع النزوح. ولكن ما حل بحماة جعل الوجهاء يرتابون، فقام وفد منهم يطلب من رئيس الدولة، صبحي بك بركات، التدخل لدى السلطات العسكرية بغية الحيلولة دون قصف دمشق، وصد هجمات المسلحين خارج المدينة نفسها. ووعد الرئيس بركات، الذي كدرت تجاوزات الجند المساعدين في القرى المحتلة علاقاته بدولة الانتداب، على ما يبدو، بأن يعمل اللازم. وقيل أنه ألح ــ ولكنها بادرة غير مؤكدة ــ إلى وجود معارضة شديدة تحاول التحريض على استدعاء الجنرال (ساراي) بكل الوسائل، ولو تم ذلك بتكرار مأساة حماة على نطاق أوسع.

وتشكل وفد، بالاتفاق مع رئيس الدولة، لمقابلة المفوض السامي، الذي كان آنئذ في دمشق، ومطالبته بالحفاظ على المدينة في حال حدوث اضطرابات. ولكن الأوان كان قد فات، لأن أحداث اليوم التالي أتت تتسبب في حدوث ما لا سبيل إلى إصلاحه[٤٤].

فحوالي العاشرة من صباح الأحد في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر)، حصلت مشاجرة بين الجركس في فندق في سوق الخيل، وأصابت رصاصاتهم الطائشة بعض المارة. وأعقب ذلك هلع أقفلت المحلات على أثره، وتجمع السكان في منازلهم، وظهرت في جادة جمال باشا سيارات مصفحة. وجاب المدينة فارسان مجهولان يصرخان: «وصل الجند»، ثم انسحبا. ولم يعد، بعد ذلك، يسمع أو يرى شيء[٤٥]. وهبت زوبعة، وغطت دمشق سحابة من الغبار. وأقفرت الشوارع.

وحوالي الرابعة مساء، لعلع صوت رصاص



□ الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، القائد السياسي للحركة السورية.

قوي، مصدره، كما بدا، الأحياء الجنوبية للمدينة.

وظهر ثوار في باب الجابية، فهاجمتهم القوات السورية التي نقلت إلى جادة جمال باشا، وفرقتهم في بضع دقائق. وانسحبت فورا جماعة نسيب بكري التي كانت قد وصلت إلى حي الميدان[٤٦].

حينئذ ظهر حسن خراط فجأة في حي الشاغور واتجه نحو قصر العظم، مقر المفوض السامي، معتقدا أن بوسعه أسر هذا الأخير. ولكن الجنرال (ساراي) كان، في هذه اللحظة العصيبة، في القطار عائدا من أزرع إلى دمشق التي وصلها حوالى السادسة وتوجه مباشرة إلى مرتفعات الصالحية المحصنة. ولولا غيابه في ذلك اليوم لأسرته جماعة خراط بسهولة.

ومن هذه الناحية، وفي حين أن أية مقاومة لم تحاول عرقلة مسيرة الثوار، فان الدرك السوري، المدعوم بدبابة واحدة فقط، والموجود في حي الدرويشية، على بعد كيلومترات من قصر

العظم، استطاع دحر جماعات أخرى وإجبارها على الفرار.

وخارج نطاق هذا الموقع حيث جرت محاولة للرد، بالاضافة إلى ما حدث في جادة جمال باشا، فقد سادت في كل مكان لا مبالاة، بدت أنها مصطنعة، سهلت اقتراب المجاهدين[٤٧].

وفجأة، ووسط البلبلة العامة، ودون إنذار مسبق، وبلا أي إخطار، وسواء أكان الدافع في النهاية إنجاز خطة موضوعة سلفا أم اليأس من الوضع، فقد دوت المدافع حوالى الخامسة من مساء الأحد في ١٨/١٠/١٩٢٥. ومن المواقع المحصنة في حي الصالحية في الشمال، المحاط بالأسلاك الشائكة والمتاريس، تساقطت القذائف، دون انقطاع، على بقية المدينة، وبشكل خاص على الأحياء الجنوبية: الشاغور والميدان والدرويشية. غير أن الثوار كانوا قد غادروا المدينة مع اطلاق القذائف الأولى للمدفعية.

ولم تصمت مدافع الحصون إلا في الليل. أما أزيز القذائف المنطلقة من الدبابات فاستمر حتى الصباح.

غير أن مدافع القلعة الواقعة في قلب المدينة عاودت، فجر الاثنين، إكمال المجزرة، فانهارت المنازل والقصور القديمة والآثار على سكانها. وكانت الأوساط المكتظة بالأهالي، والأحياء التجارية في المدينة، هي المقصودة، بصورة خاصة. واستمر هذا الجحيم، حسب أقوال السكان، حتى الثلاثاء في ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر)، ولم يتوقف إلا قبيل الظهر[٤٨].

وفي صباح ذلك اليوم، جابت الحي دبابات الاقتحام، مطلقة النار يمنة ويسرة، وناشرة الموت والارهاب. وفي نفس الوقت، كان يتم القبض على كل مارّ يصادف في زوايا حي الصالحية، سواء أكان هاربا أم ثائرا، ويقاد إلى حديقة الكركي ويعدم على الفور بطلقة مسدس[٤٩].

وحوالى الساعة العاشرة، التمس وفد من الوجهاء من الجنرال غاملان (Gamelin) إيقاف القصف، فأجاب ــ والواقعة رواها الوفد نفسه ــ بأنه لن يأمر به إلا بعد تحقيق الخطة المرسومة التي تقضي بقصف دمشق حتى الظهر[٥٠].

وفرض الجنرال، في نفس الوقت، على المدينة تعويضا مقداره مئة ألف ليرة ذهبا، وتسليم ثلاثة آلاف بندقية بذخائرها. وقبلت الشروط فورا. وبعد نصف ساعة توقفت المجزرة. وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف. وكان القصف قد دام ٤٨ ساعة[٥١].

وأنجز الجنرال، خلال نهارين وليلتين، مهمة تدميرية مشؤومة، وحصد أناسا، دون تمييز من حيث العمر والجنس. لقد فاجأهم الموت في مآويهم التي تقوقعوا فيها من شدة الفزع، وباغتتهم القذائف دون إنذار مسبق. وعندما أصبح الفرار مستحيلا، تحت نيران المدفعية والرصاص، المتزامنة والمتقاطعة، سقطوا بغزارة ضحية أشنع مجزرة عرفها تاريخهم المعاصر.

وجاء الحريق الذي سببته، بلا شك، القنابل المحرقة والقذائف الصاروخية، الموجهة إلى أكواخ الأحياء الفقيرة، يكمل عملية الموت التي أنجزتها المدفعية الفرنسية. لقد دمرت أسواق بكاملها، ودفنت تحت أنقاضها جثث سكانها المفحمة[٥٢].

ومن العسير إحصاء الخسائر في الأرواح والأملاك، فلم يجر يوماً إحصاء للجثث. ولكن الرأي العام يقدرها بعدة مئات. أما الخسائر المادية فانها فادحة. وكان يكفي، خلال سنوات، القيام بجولة بسيطة في الأحياء المتضررة لادراك مدى الدمار الحاصل. وقد أعلن الجنرال (ساراي) في لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب أن «ثلاثمئة منزل من اللبن قد انهارت أرضا في حي الشاغور وحي الميدان». وهذا الرقم ضخم إذا فكرنا في أن ثلاثمئة مأوى مدمر تمثل، على أقل تقدير، ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ شخص دون مأوى[٥٣].

غير أن هذه الأحياء، التي وجهت إليها تهم كثيرة ودمرت كليا تقريبا، ليست هي الوحيدة التي تضررت، فهناك أحياء تجارية في وسط المدينة، كسوق مدحت باشا، وباب الجابية، وباب السروجة، والقنوات، وباب البريد، وأعمدة بأكملها، كانت فريسة اللهب والقذائف، وانهارت أرضاً. وهي تثبت، لأكثر العيون غشاوة، مقدار الخراب الذي أحدثه القصف. إنها وقائع فاضحة عجزت الادعاءات الرسمية عن إنكارها.

ومع هذا فلم يكن هناك أية ضرورة حربية تبرر مثل هذه الوحشية(٥٤). لقد اعتبروا أن الدافع إليها هو الصعوبة، التي كانت تمثلها حرب الشوارع، في مقاومة عدو كثير العدد كان يجب القضاء عليه لتجنب مجزرة يذهب ضحيتها المسيحيون والاوروبيون الموجودون داخل المنطقة المجتاحة(٥٥).

لقد استطاعت جماعات من زهاء مئة رجل التسلل إلى المدينة. وسهل السكان عملية تقدمها. وكان ذلك يمثل كل أفراد التظاهرة، وهو عدد ضئيل إذا ما قيس بعدد الذين يبثون الفوضى في المدن الأوروبية. وأعلنت البيانات الرسمية أن هذه الجماعات تسللت منذ الصباح إلى المدينة. ونحن نعجب، في هذه الحالة، لعدم تعرضها، حتى المساء، لأية مقاومة، باستثناء المجابهة التي تلقتها من بعض الدرك السوري في جادة جمال باشا وحي الدرويشية.

وكان ضيق الشوارع يمثل، على الأصح، عاملا ملائما للقوات النظامية. فالأحياء القديمة، التي كانت مشتل التظاهرة، محاطة بمسالك عريضة من الشوارع والجادات التي شقت حديثا. وكان يكفي، للتغلب على الثوار، سد منافذها ومحاصرة جوانبها.

وبالاضافة إلى ذلك، فالاضطرابات كان يمكن تلافيها فيما لو اتخذت التدابير اللازمة. فقد علمت القيادة العليا، منذ ٢٤ آب (أغسطس)، بهجمات الجماعات على دمشق، التي تكررت أكثر من مرة، وكان بمقدورها تجنب عودة هذه الهجمات وانقاذ المدينة من النكبة والخراب. وساد المدينة، ما بين ١٥ و ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) جو من الترقب. وما زال السكان يتذكرون تلك اللحظات التي كان القلق فيها يتفاقم ساعة بعد ساعة، والهواجس تهصر القلوب، وكل شيء ينبه السلطة إلى الكارثة الوشيكة. ولكن السلطة لم تقم بشيء، أو أنها لم ترغب في القيام بشيء. لقد كانت هناك خطة مرسومة. وكان تدمير جزء من المدينة (الشاغور والميدان اللذين يمثلان في دمشق ضاحية شبيهة بضاحية سانت انطوان في باريس) أمراً متوقعاً.

أما الحجة التقليدية فكانت: التذرع بمقتل بعض الأرمن، مساء ١٨ تشرين الأول (اكتوبر)، لاتهام الثورة بمتابعة إبادة المسيحيين والاوروبيين. وكان من السهل تنفيذ هذا المخطط غير المقبول لو كانت تلك هي نية الثوار. فخلال القصف كان حي باب توما، حيث كان يتجمع العنصر المسيحي، وسيبقى، خلال الأيام المقبلة، خالياً كليا من الجند. وكل من يعرف تنظيم المدينة يدرك أن الحي المسيحي كان من الأحياء المعرضة أكثر من غيرها لرصاص الجماعات المسلحة. وخلال فترة الثورة كلها، لم يُنكل بأي مسيحي، ولم يُنهب أي بيت مسيحي. وكان من الواضح أن الثوار قد تعمدوا عدم إثارة القلق في نفوس المسيحيين، في الوقت الذي لم يتوانوا فيه عن النهب والتخريب في الأحياء الاسلامية عندما كان يدفعهم إلى ذلك ثأر شخصي أو حدة المعركة.

وبالاضافة إلى كل ذلك فهناك رد رسمي، ذو أهمية كبرى، على كل الاتهامات التي وجهت إلى الجماعات المسلحة، وعلى كل المبررات التي أعطيت للقصف. إنه احتجاج السلك القنصلي في دمشق، الذي رفعه عميده، في ١٩٢٥/١٠/٢١، غداة المأساة، إلى مندوب المفوض السامي. وهذا هو نصه الكامل:

«السيد المندوب،

«كلفني السلك القنصلي أن أنقل إليكم المعلومات التالية عن أحداث دمشق.

«إن سلطات الانتداب، بالتبليغات الشفهية والمكتوبة، الموجهة، في عدة مناسبات، إلى القناصل، وبالبلاغات المنشورة التي أعلنت استتباب الهدوء التام في دمشق، قد تعهدت للأجانب بضمان سلامتهم في هذه المدينة. وعلى أثر هذه التعهدات الرسمية الصادرة عن السلطة التي تعتبرها عصبة الأمم والحكومة الأميركية مسؤولة، لم ينصح القناصل، رغم قلقهم، رعاياهم بمغادرة المدينة.

«ومن ١٨ إلى ٢٠ من الشهر الجاري، وعلى أثر غارة قامت بها **جماعة ضئيلة العدد تساعدها عناصر قليلة من السكان، ارتأت سلطات الانتداب، دون توجيه أي إخطار إلى الأجانب لتمكينهم من حماية أنفسهم، سحب فرقتها العسكرية من المدينة تاركة، دون حماية، الأجانب، بمن فيهم النساء والأطفال،**



□ **كابتن كاربيه: احد الأسباب الرئيسية لاندلاع الثورة السورية.**

وكذلك السكان المسيحيين والاسرائيليين من أهل البلد.

«وأخضعت المدينة، في نفس الوقت، ودون توجيه أي إخطار، **لقصف طويل وشامل** لا تتعرض له عادة إلا الأماكن الحصينة. وتركت الأجانب تحت وطأة هذا القصف، في الوقت الذي أبعد فيه الفرنسيون عن الخطر. وبسبب صعوبة التنقل، لم تحص، بعد، الخسائر في الأرواح والماديات، ولكنه علم أن عدة منازل أجنبية قد تضررت وعدة أجانب قد قتلوا بالقذائف الفرنسية.

«ونظرا للظروف المذكورة، فان السلك القنصلي ملزم باعتبار السلطات الفرنسية مسؤولة عن الأملاك والأرواح الأجنبية التي فقدت خلال الأحداث الراهنة.

«وبما أن الضمانات المشار إليها في بداية هذه المذكرة لم تتحقق، ونظرا لتصرف الفرق الفرنسية المذكور أعلاه، فانه لم يعد بامكان السلك القنصلي أن يتحمل مسؤولية نصح رعاياه **بالاعتماد على حماية سلطات الانتداب**. إنه ينصح رعاياه إذن بمغادرة دمشق، ويسأل السلطات الفرنسية أن تتفضل بوضع وسائل نقل مضمونة وكافية تحت تصرف الأجانب الراغبين في العمل بهذه النصيحة.

«ومع ذلك، فمن المؤكد أن هناك عددا من الأجانب لا يستطيع مغادرة دمشق.

«ومن واجب دولة الانتداب أن تؤمن لهم حماية ملائمة بواسطة قوات كافية وأن لا تعرضهم لأخطار القصف. فالسلك القنصلي ملزم إذن **باعتبار سلطة الانتداب مسؤولة عن الأرواح والأملاك في دمشق**.

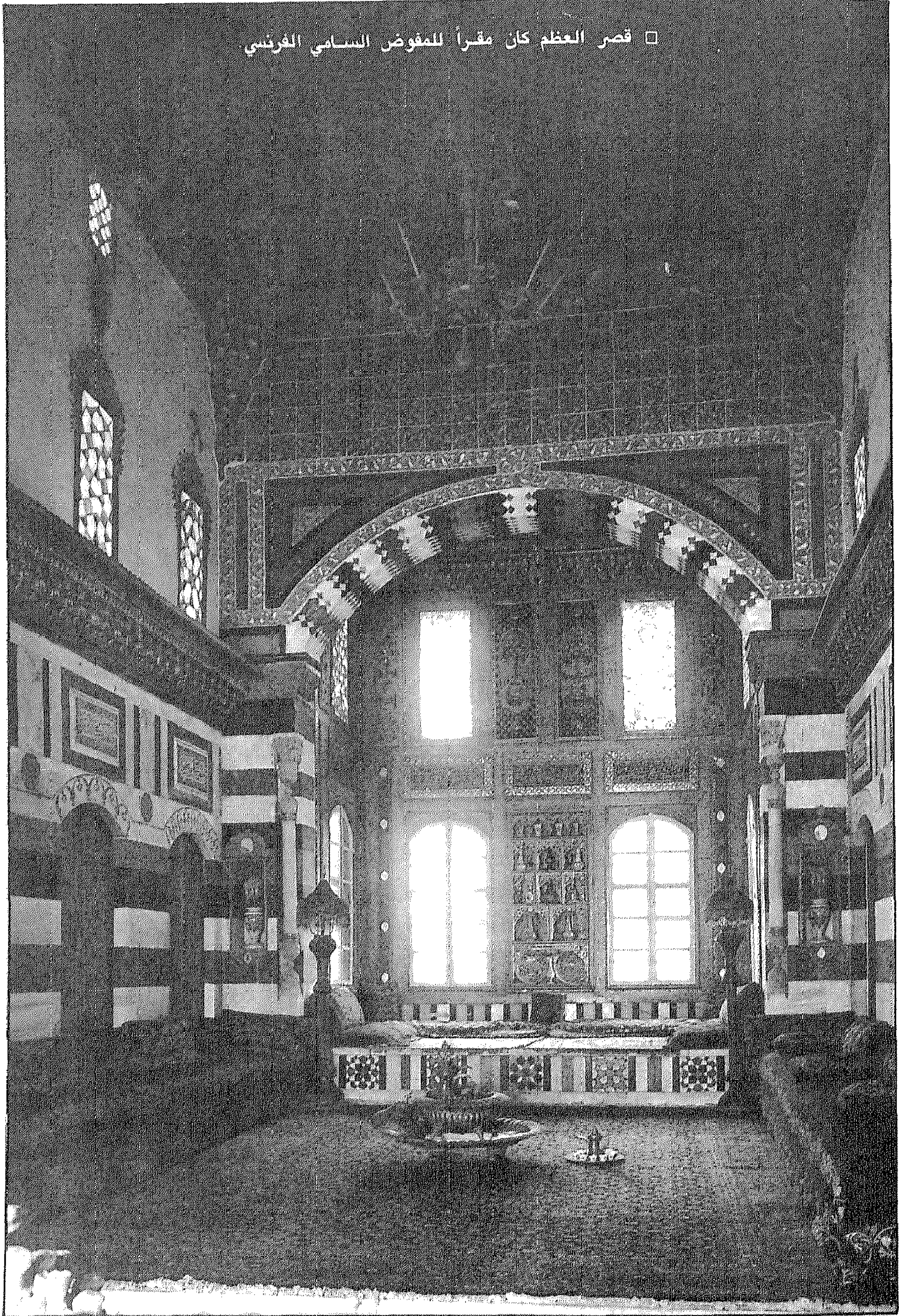
«وبهذه المناسبة، فان السلك القنصلي يأمل في أن يتم تأمين حماية العاصمة السورية في المستقبل، **على جبهة عسكرية، خارج المدينة**.

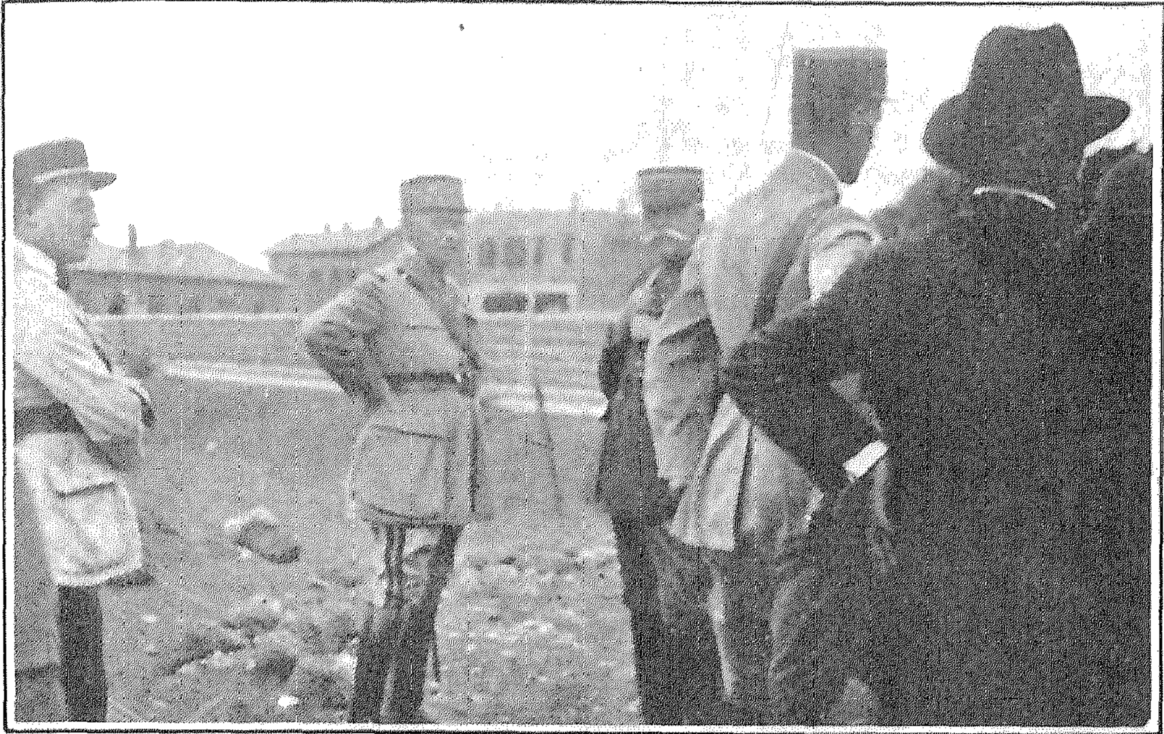
«ومن الواضح، في غياب مثل هذه **الحماية الخارجية**، ألا يكون هناك ما يحول دون دخول جماعات أخرى مسلحة إلى المدينة التي ستصبح، مجددا، مسرحا للعمليات العسكرية يعاني منها الأجانب الذين أقاموا في المدينة واثقين بالحماية الفرنسية.

«ومن الملاحظ أن الخسائر التي سببها القصف والحرائق في الأوساط التجارية الرئيسية في المدينة سيكون لها انعكاسات على المؤسسات الاوروبية والأميركية التي تتعامل تجاريا مع التجار المتضررين من هذا الخراب. ومن جهة أخرى، فمما لاشك فيه أن هناك، في المحلات المدمرة، بضائع يملكها أوروبيون وأميركيون.

«لقد سرت إشاعات مفادها أن السلطات الفرنسية تنوي، في ظروف ما، **معاودة قصف المدينة**. ومثل هذا القصف سيتسبب حتما في خسارة أرواح وممتلكات أجنبية أخرى.

«ان السلك القنصلي، إذ تحدوه مشاعر إنسانية عامة وشعور خاص بوجوب الاهتمام برعاياه، لا يسعه إلا أن يعرب عن أمله في إمكان تحاشي مثل هذا القصف وفي إمكان إخضاع أعمال القمع، إن غدت ضرورية، **للمناهج الأكثر استعمالا في حالات الفوضى في المدن، والأكثر ملاءمة لمعاقبة المذنبين دون إصابة الأبرياء، بمن فيهم النساء والأطفال**. والسلك القنصلي لا يعتقد أن بوسعه إسكات هذا الانفعال الانساني **لأن سكان دمشق المسلمين بشكل عام**، مهما تكن شرور بعض العناصر، **قد حموا المسيحيين والاسرائيليين، بمن فيهم الأجانب،**


□ قصر العظم كان مقراً للمفوض السامي الفرنسي



□ جنرال غاملان (Gamelin) بصحبة الجنرال ساراي في دمشق، والذي اصر على قصف دمشق من الصباح حتى الظهر، بالرغم من الالتباس الذي قدمه وفد من وجهاء المدينة.

برعاية كبيرة جدا حينما لم يعد بمقدورهم، بعد سحب الفرق الفرنسية، ترقب أية حماية.

«إنني مكلف أن أحيطكم علما بأنني وزملائي سنبعث إلى حكوماتنا بنسخ عن هذه المذكرة.

«وأغتنم هذه الفرصة، يا سيدي المندوب، لأجدد لكم تقديري البالغ.

الامضاء: عميد السلك القنصلي»(٥٦).

من النادر أن تصل وثيقة دبلوماسية إلى هذه الدرجة من الحدة. إنها تحتوي على حقائق قاسية أنكرتها سلطة الانتداب في تصريحاتها وتقاريرها الرسمية للصحافة الفرنسية وعصبة الأمم.

ومن المتفق عليه اليوم أنه كان بالامكان تجنب القصف بتكوين «جبهة عسكرية» خارج المدينة. «على أثر غارة قامت بها جماعة ضئيلة العدد تساعدها عناصر قليلة من السكان، ارتأت سلطات الانتداب، دون أي إخطار... سحب فرقها من المدينة تاركة، دون أية حماية، الأجانب، بمن فيهم النساء والأطفال، وكذلك السكان المسيحيين والأسرائيليين».

كذلك، وبعكس الادعاءات اللاحقة والتأكيدات الواردة في التقريرين المرفوعين إلى عصبة الأمم عن أحداث سوريا لعام ١٩٢٥(٥٧)، فان سلطات الانتداب «أخضعت المدينة، دون أي إخطار، لقصف طويل وشامل». والشاغور والميدان ليسا الحيين الوحيدين اللذين دمرا، فالمدينة بأكملها تقريبا قد هدمت.

وأخيراً، فإن احتجاج السلك القنصلي في دمشق قد وضع حدا لأسطورة مقيتة أذيعت لتبرير الخراب المتراكم بمفعول رجعي. «... إن سكان دمشق بشكل عام قد حموا المسيحيين والاسرائيليين، بمن فيهم الأجانب، برعاية كبيرة جدا حينما لم يعد بمقدورهم، بعد سحب الفرق الفرنسية، ترقب أية حماية». وبفضل هذا النص التاريخي تم الاعتراف بفضل ثوار عام ١٩٢٥.

ونحن ملزمون بالقبول ـ لأننا لا نستطيع التهرب من ذلك ـ بأن النقص في القوى العسكرية، والبلبلة في قيادة الأركان، وإرادة بعض عناصر الجيش في انهاء مشكلة المدينة المضطربة، هي وحدها التي أدت إلى قصف العاصمة السورية. وكان لمصيبة دمشق، قلب العالم العربي ودماغه، واحدى عواصم الاسلام الروحية، والمركز الثقافي للشرق، دوي أليم في

نفوس العديد من الناس. وقد أثار النبأ، حسب المستويات والعروق، الاستنكار أو الحقد أو الذعر.

ولوحظ، في الأيام التالية، تصاعد في الثورة. وكان من نتائج التدمير الذي أحدثه القصف، وأعمال القمع المنفردة التي أعقبته، ان انضم إلى صفوف الثوار في الغوطة جميع هؤلاء الذين تركتهم القذائف بلا مأوى أو مقر. وجاءت تعزز صفوفهم مجموعات من الشباب متحدرة من طبقات رفيعة من السكان.

ولم تلبث الغوطة أن أصبحت معسكر الثوار الحر على الاطلاق. وانتهزت لجنة قيادة الثورة فرصة عجز الجيش النظامي الواضح عن البقاء فيها، فنزلت من جبل الدروز ونظمت نفسها فيها، في حمى الجداول المتعددة التي تخترق البساتين الكثيفة والتلال الجبلية في تلك المنطقة المثالية. وأدخلت عدة تعديلات على الحكومة المؤقتة التي تكونت سابقا في السويداء. وكان الدكتور شهبندر يتولى رئاستها بمساعدة مجلس من القادة العسكريين. وبقي سلطان القائد الأعلى لجماعات الأنصار. وكان يشرف على تحركاتها ويلهم أعمالها بمقدار مناسب من المرونة والشدة. وجاءت «محكمة الاستقلال» تكمل النظام، وهي محكمة مماثلة لجميع المحاكم الثورية التي تتكون بفعل الحاجة، فتحاكم بسرعة وتهتم بالجرائم السياسية بوجه خاص.

وحاولت الثورة السورية التي بنيت على هذه الأسس أن تعيش من الضرائب البسيطة التي كانت تجمع من قرى الغوطة أو من الأماكن المحتلة. ولكن الضرائب، التي تحملت نفقات الجند خلال الأشهر السابقة، لم تتمكن إلا من سد قسم يسير من حاجات المسلحين. فالقسم الأوفر من إعاناتهم كان يأتي، بشكل خاص، من المبالغ التي كانت تجمع من الأوساط العربية في مصر وفلسطين والعراق، ولاسيما من الأميركيتين[٥٨]. وقد لاقت الحركة السورية، في هذه الأقطار، منذ الساعة الأولى لانطلاقها، تعاطفا متصاعدا بلغ ذروة الهيجان بعد نكبة دمشق.

وبفضل هذا المصدر الذي لن ينضب أبدا استطاعت الثورة أن تستمر وتتصدى للقوات التي كانت تعززها يوميا دولة الانتداب، المصممة على تجاهل الاضطرابات الأكيدة التي كانت، بالأساليب التعسفية المستعملة، تنعكس على فرنسا نفسها.

ولحماية دمشق أخيراً من الغارات الجديدة، أحاطتها سلطات الانتداب، من جهتها، بالأسلاك الشائكة والمتاريس، وعززت بعض المواقع الاستراتيجية، وأعلنت الأحكام العرفية التي كانت قائمة بالفعل منذ أسابيع، وراقبت السير داخل المدينة وخارجها.

وكان لدمشق، التي كانت تغادرها يوميا عائلات كاملة بمجموعات متراصة، مظهر المنطقة القفراء التي تتعرض جوانبها دون انقطاع لهجمات غاضبة من قبل أعداء لدودين حقودين. وخلال أسابيع، وليل نهار، عاش السكان المساكين الذين ظلوا في المدينة على دوي السلاح المصم، لا يرون إلا تحركات فرق عسكرية ساخطة ومواكب من الأموات والجرحى. وانعزلت العاصمة القديمة عن بقية البلد. ولم يكن بالامكان المجازفة بالخروج إلى الخارج إلا في حماية الطائرات والسيارات المجهزة بالرشاشات. وحتى القطارات المصفحة التي كانت تتوقف غالبا في وسط الطريق لم تعد تعمل إلا بشكل غير منتظم لتؤمن اتصالا، عسكريا فقط، ببيروت. ومن ناحية الشرق توقف التغلغل الحضاري للشركات العاملة عبر الصحراء، وأصبح البدوي من جديد ملكا في البلاد الواسعة.

للبحث صلة

الهوامش

(٣١) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٨. راجع تفاصيل عصيان حماة في التقرير، رقم ٢، المقدم إلى عصبة الأمم من قبل وفد لجنة القاهرة السورية ــ الفلسطينية، في جنيف.

(٣٢) لقد اكد الثوار دوما أن المحاصرين قد أشعلوا الحريق لايقاف تقدمهم (تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٩).

(٣٣) التقرير، رقم (٢)، للجنة السورية ــ الفلسطينية يقدر، دون تعداد الجرحى، عدد الأموات بـ ٣٤٤، والخسائر بـ ١١١ مخزنا و ١٧ منزلا، مهدما أو محروقا. وهذا التقرير، على غرار التقارير الأخرى التي أعقبته، وضعه أشخاص يقيمون في المدينة، كانوا شهود عيان للأحداث.

(٣٤) ولنذكر ايضا، على سبيل التوثيق، احتجاج نساء حماة، في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥، لدى دو جوفنال (M. de Jouvenel)، المفوض السامي، عند مروره بحماة. لقد قلن له: «إن البلد لم يرتكب الأخطاء التي تستحق هذه العقوبات القاسية التي لم يدون التاريخ مثيلا لها في سجلات العصور الأولى. إننا نعرض عليكم جزءاً من الآلام التي قاستها حماة... ان السلطات العسكرية أجازت لجنود الجيش أن يقتلوا وينهبوا... وأطلق الجنود العنان لغرائزهم. وكانوا، إذا صادفوا أحدا قرب نافذته أو مارا في طريقهم، من أي جنس كان، يقتلونه دون رحمة... وكل ما ذكرناه، يا حضرة المفوض السامي... لا يعد شيئا إذا ما قارناه بحالة الأطفال والهلع الذي يتملكهم في كل لحظة. ويكاد هؤلاء الابرياء الصغار يموتون من الفزع بسبب دوي القنابل، وبسبب القصف الذي كان يمطر المدينة، دون إنذار، بالشظايا ويحصد أرواح السكان المساكين لأنهم لم يسلموا كمية البنادق التي طلبتها السلطات العسكرية...» [**الأحد الجديد**، وهي صحيفة بيروتية، في ١٩٢٥/١٢/١٩].

(٣٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ١٩.

(٣٦) وقد سردت تفاصيل الحادثة في تقرير غير منشور، وتحت عنوان: **أسباب الأحداث المشؤومة في دمشق وجبل الدروز**، رفعه إلى الحكومة الفرنسية جميل بك الألشي، وهو رئيس سابق لمجلس الوزراء (عام ١٩٢٠)، وضابط سابق في قيادة أركان الجيش العثماني، ووزير سابق للمالية في حكومة الشيخ تاج...

(٣٧) جاء في تقرير الرئيس الألشي، ص ١٢، ما يلي: «إن عملية ترك جبل الدروز لمصيره قد عززت كثيرا وضع الجماعات المسلحة في ضواحي دمشق، وكانت السبب في امتداد الثورة إلى عدة أماكن».

(٣٨) تقرير الألشي، ص ٤.

(٣٩) المرجع السابق، ص ٤.

(٤٠) «كان وجهاء دمشق يشاهدون جيادهم وأبقارهم تباع بالمزاد العلني دون التجرؤ على المطالبة باسترجاعها من أصحابها، خوفا من التعرض للاهانة من قبل اناس غير مسؤولين، ولأن السلطات كانت تقول: هذه الأملاك هي لآخر المالكين، ونحن الذين سمحنا لهم بامتلاكها [المرجع السابق، ص ٥].

«في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) أحرقت، بتدبير انتقامي، قرى جرمانا وكفربطنا ويام ومليحة ويسري. ووجهت إلى سكانها تهمة ايواء قطاع الطرق. والحقيقة أن وضع هؤلاء المساكين كان رهيباً، فهم كانوا معرضين إما للحرق والذبح من قبل قطاع الطرق أن رفضوا، وأما للذبح والعقاب من قبل الفرنسيين إن فعلوا...» [راجع الخبر الذي نشره أحد المقيمين المعروفين في دمشق، في مجلة (Phénix)، عدد ٧، تاريخ ١٩٢٦/١/٧. ومن المستحسن قراءة بقية الخبر الذي تضمن ملاحظات، سجلت ساعة بساعة، تسرد مراحل «آلام» دمشق حتى ٢١ تشرين الأول (اكتوبر)].

«كانت جماعات تخلع الأبواب وتقتحم البيوت. وكان بامكانك متابعة تقدمها من صوت تحطيم الزجاج والاواني والأثاث المهشم. وكان أفراد الفرقة الأجنبية ينهبون القرية الغنية... وعندما ينقلب كل شيء رأسا على عقب، يخرجون محملين بالأقمشة، وقوارير العسل الكبير، وخبز الزبيب الجاف. وكانوا ينقلون المجوهرات والدمى وساعات اليد والحائط. ويعلم الله ماذا...» [راجع كتاب دوتي (Doty): (La Légion des Damnés)، باريس ١٩٢٩، ص ١٥٣].

(٤١) كان الجركس يختارون محليا من منطقة القنيطرة على الأخص، التي اقاموا فيها برعاية السلطان عبد الحميد، أو بسبب سياسته الحذرة، بعد عام ١٨٧٨، عندما اضطروا إلى الرحيل عن منطقة قارص التي ضمها الروس إلى أراضيهم. أما بالنسبة إلى الأرمن الذين لاقوا، أثناء الحرب وبعدها، ترحيبا، متعاطفا على الأغلب، من عرب سوريا، وعلى الأخص من عرب حلب حيث تقوم تجمعاتهم الكثيفة، فقد انخرطوا في الفرق المساعدة تلبية لطلب دولة الانتداب.

(٤٢) تقرير الألشي، ص ٥.

(٤٣) تقرير عام ١٩٢٥، المذكور، ص ٣١.

(٤٤) تقرير الألشي، ص ٦.

(٤٥) المرجع السابق، ص ٦ — ٧.

(٤٦) لقد حدث صدام، في المعسكر الارمني الذي ترك بلا حماية، بين الأرمن والثوار، فقد اقتحمت الجماعات المسلحة التي أثارتها وحشية المساعدين الأرمن اولى منازلهم، انتقاما منهم، وردا على بعض الرصاصات التي أطلقت من المعسكر نفسه وعرقلت مسيرتهم. وسقط رجال من الطرفين، وحمل الثوار، حسب عاداتهم، موتاهم، ولكن الأرمن، أثناء تقهقرهم، خلفوا موتاهم هناك. ووصفت هذه المعركة، فيما بعد، بالمجزرة، وأريد اعتبارها، بنية مبيتة، كمقدمة للابادة العامة للأرمن. وإذا كان الدم الأرمني قد سال هذه المرة «فان مسؤوليته تقع على عاتق هؤلاء الذين ادخلوا ارمن حلب في صفوف المجموعة الجركسية. وكان مما حرض الثوار على هؤلاء المساكين ذلك التصريح الذي أدلى به (ساراي) لوجيه من وجهاء دمشق طالبه بالتدخل لاحلال سلام مشرف مع الدروز: «سأبيد سكان جبل الدروز وأستبدل الأرمن بهم» [تقرير الألشي، ص ٥].

(٤٧) «ان الدرك المحلي الذي تصرف أولا، في بداية شهر آب (أغسطس)، بشكل لائق، سرعان ما تخلى عن التزاماته وراح يسهم، علانية، في مساعدة الثوار...» [تقرير عام ١٩٢٥، ص ٣١]. ان الفرق السورية كانت، مع ذلك وكما رأينا، الوحيدة التي دربت، منذ بداية الحركة، على حرب الشوارع التي كانت، على صعوبتها، دائما محتملة. ولكن القصف الذي بدأ بغتة كشف عن عزلتها وألقى بها في احضان اليأس الذي سيطر، على ما يظهر، على القيادة. وفي هذه الفترة استسلمت.

(٤٨) تقرير الألشي، ص ٧. ان التقارير العديدة التي كانت اللجنة السورية ــ الفلسطينية في القاهرة تتلقاها من مراسليها المحليين لترفعها إلى عصبة الأمم تتضمن تفاصيل مسهبة عن هذه الأحداث المشؤومة، لا تختلف بشكل عام عن العرض الذي ورد في تقرير الرئيس الالشي. وقد أحجمنا عن اقتباس مراجعنا منها لئلا نتهم بالمبالغة.

(٤٩) أصبح هذا الأسلوب شائعا. «... عندما يمسك الفرسان (السباهيون)، صدفة، بمواطن مسلح، يلصقونه بالجدار ويعدمونه... وفي الطريق نهبت احدى القرى وأحرقت. والجركس المتوحشون الذين يتحملون المسؤولية عنا لا يخضعون لأية مراقبة. إننا نسمع من بعيد صراخ النساء، وهذا ليس بالأمر الجميل...» [Doty، المرجع المذكور، ص ١٦٢]. حول التنكيل بدمشق راجع على الأخص كتاب:

Alice Poulleau, Damas sous les Bombes, Paris, 1930.

(٥٠) تقرير الألشي، ص ٩.

(٥١) صحيفة (Le Temps) في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر): ولكن «الجنرال (ساراي) يعترف في تقريره أن القصف دام يوما ونصف اليوم» (هذا ما قاله (Buré) في مجلس النواب الفرنسي في ١٨/١/١٩٢٥).

(٥٢) يتهم تقرير عام ١٩٢٥، على طريقته، الثوار باشعال الحريق عمدا (ص ٣٣). ويكفي، لاثبات بطلان هذا الزعم، أن نفكر في أن معظم الثوار كانوا مكونين من العنصر الحضري، فبكري وخراط... ورجالهم هم من دمشق وكانت عائلاتهم في المدينة لدى هجومهم.

(٥٣) كان هناك ما يناهز الألف قتيل وجريح، حسب مجلة (L'Asie Française)، عدد اكتوبر ١٩٢٥، ص ٣٢٣. وقيمة الخسائر المادية، حسب R. de Caix) مندوب فرنسا لدى اللجنة الدائمة للانتدابات، ترتفع إلى ١٨٢,٠٠٠ ليرة ذهبا للأملاك المحروقة، و ٢٣٦,٠٠٠ للأملاك المنهوبة. ولكن جميل بك الألشي، في تقريره المذكور، يقدر الخسائر المادية بمليون ليرة استرلينية (ذهب).

(٥٤) إن قصف مدينة مفتوحة، ليست في حالة حرب مع السلطة العسكرية، دون إخطار أو إجلاء مسبق، يعتبر خرقا لقانون الأمم.

(٥٥) راجع البيان الصادر عن وزارة الخارجية، في صحيفة (LeTemps)، عدد ٥/١١/١٩٢٥، وشهادة الجنرال (ساراي) التي نقلتها نفس الصحيفة في ١٩ منه.

(٥٦) إن الفقرات المطبوعة بالأسود هي نفس الفقرات التي وضع تحتها خط في النص الأصلي. وقد استطاع كاتبها، في عهد الانتداب، الحصول على نسخة منه بواسطة مستشار فرنسي في المفوضية السامية في بيروت.

(٥٧) التقرير الموقت لعام ١٩٢٥، ص ٢١ وما يليها. وتقرير عام ١٩٢٥، ص ٣١ وما يليها.

(٥٨) ويشكل المسيحيون الغالبية فيهما.



إلى المشتركين الكرام

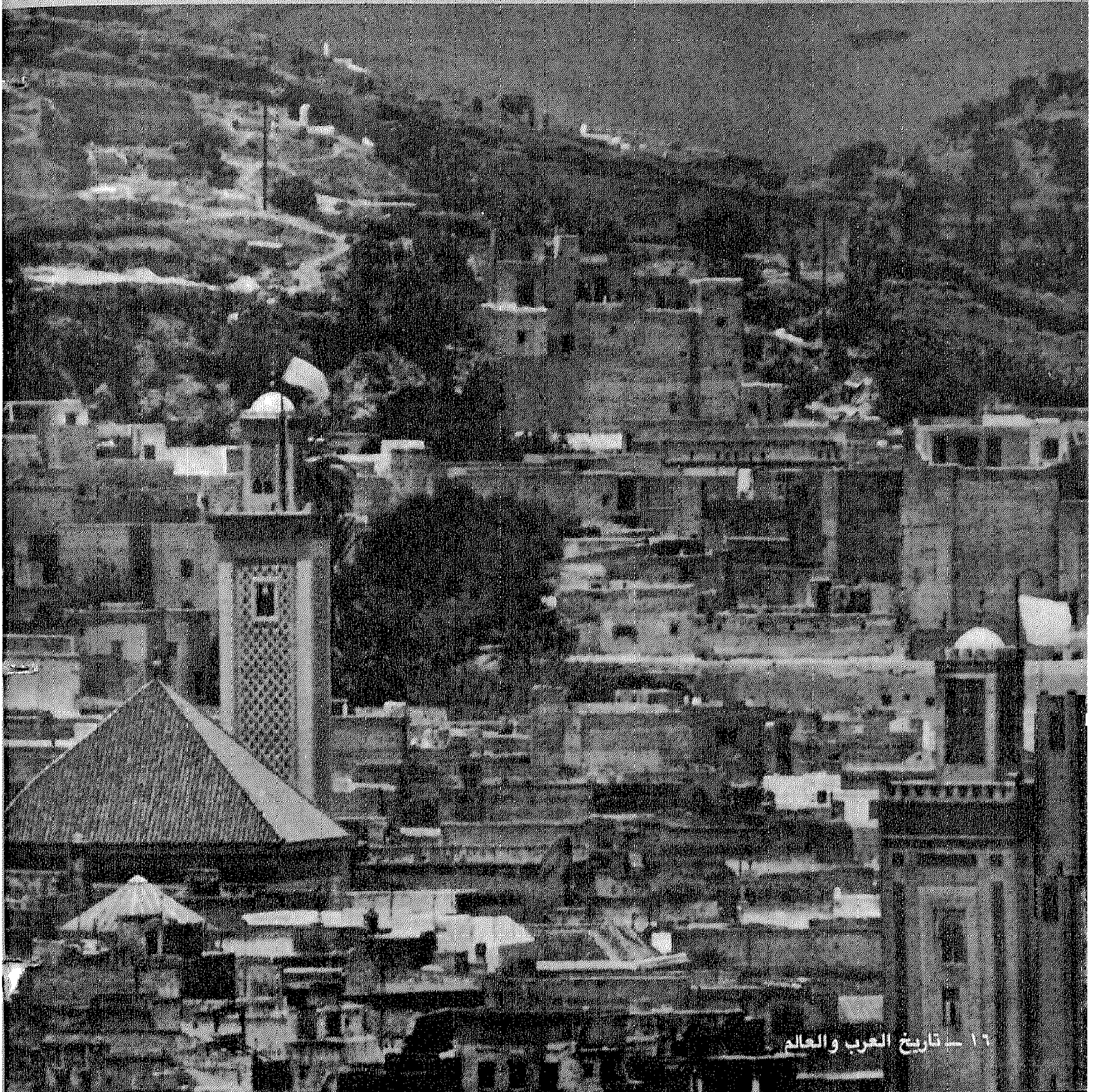
نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة

الرّوابط الثقافيّة المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث*

د. عبد الجليل التميمي



إن موضوع تبادل التأثيرات بين تونس وليبيا من جهة وبين وسط وغرب افريقيا، يعتبر من المواضيع التي وجب استيفاء دراستها والتوقف عندها كثيرا لأهميتها البالغة، خاصة ونحن نسعى لخلق قنوات جديدة بيننا وبين الشعوب الافريقية التي ارتبطنا وإياها في الماضي بأكثر من رابطة، وأنه من غير الانصاف أن لا يتصور كل منا مدى حيوية وثراء وتواصل العلاقات بيننا على ممر العصور وفي مختلف المجالات، ويكفي الباحث مواكبة الأحداث التاريخية وإدراك حقيقتها وأبعادها، ليندهش لطمس تلك الحقائق والمعطيات وجهلنا لها، وتعتبر الجسور العلمية والثقافية التي يسعى المخلصون من الأفارقة والعرب على إعادتها، استجابة تاريخية ووفاء أصيلا لكل أولئك الذين قدموا أثمن ما لديهم لتعزيز تلك الروابط وتعميقها.

وعلى ضوء ذلك سوف تتناول هذه الدراسة مدى عمق وتأثر المد الثقافي بين تونس وليبيا ووسط وغرب أفريقيا انطلاقا من أواخر العهد الحفصي(١).



لقد تمتعت الدولة الحفصية خلال القرن الخامس عشر الميلادي بتقدير واحترام كبيرين من العالم الاسلامي والعالم المسيحي على حد سواء(٢)، وقد امتدت رقعتها الترابية لتحتضن، في فترات معينة، المغرب الأوسط وطرابلس ومنطقة الزاب(٣) وغدامس(٤) وغات(٥) بل ان التأثير الحفصي كان قويا جدا في جنوب الصحراء الكبرى، وهذا بفضل قوة العلاقات القائمة بين سلاطين بني حفص وامراء بورنو مثلا: وقد عززت تلك العلاقات مكانة أمراء بورنو في كل الصحراء(٦) بل ان السلطان أبا فارس توغل كثيراً في الصحراء(٧) والسلطان المعتمد زار مدينة توات سنة ١٤٣٠(٨)، وهذا ما يترجم تاريخيا على وجود ترابط قائم بين الشمال الأفريقي وشعوب جنوب الصحراء، ويذكر المؤرخون أنه ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي دخل بلاد دارفور عنصر مغربي من تونس يتمثل في شعب التنجور(٩) وأن أخوين هما علي وأحمد من أهل تونس قد استقرا بالتشاد(١٠) كأمراء، أما أمراء الحساوونة فقد جاؤوا من طرابلس(١١).

تتحدث جميع المصادر تقريبا، نقلا عن ابن خلدون، أن أمراء الكانم وبورنو قد توثقت علاقتهم بالحفصيين، وأن ذلك كان يتوج من حين لآخر بارسال الهدايا، وقد أرسل الماي دونمة ديالمي أمير كانم وبورنو إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر سنة ١٢٥٧، هدية اشتملت على زرافة، وهذا ما أثار دهشة التونسيين الذين تزاحموا لرؤية هذا الحيوان العجيب الشكل(١٢)، ثم تلتها سفارة الماي عبد الله بن كادي سنة ١٣٢٧ وسفارة الماي ادريس ابن علي سنة ١٥٠٢ والذي من عهده استمرت العلاقات طيبة ليرسل سفارة أخرى سنة ١٥٢٦، أما ابنه فقد بعثه إلى طرابلس سنة ١٥٣٤(١٣).

وقد استمرت تلك العلاقات خلال القرن السادس عشر حيث عرفت البعثات دفعا جديدا بين شعوب جنوب الصحراء والولاة العثمانيين الذين تمركزوا بكل من طرابلس وتونس والجزائر وحيث اكتسى الشمال الافريقي أهمية جديدة عن طريقهم، تمثلت في مواكبة أحداث البحر الأبيض المتوسط وتنشيط قنوات الاتصال عن طريق التجارة والحج والتعليم والزواج والهجرات

د. عبد الجليل التميمي:
استاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية/ الجامعة التونسية/ ومدير «المجلة التاريخية المغربية».

المختلفة وزيارات الرسميين لكلا الجانبين.

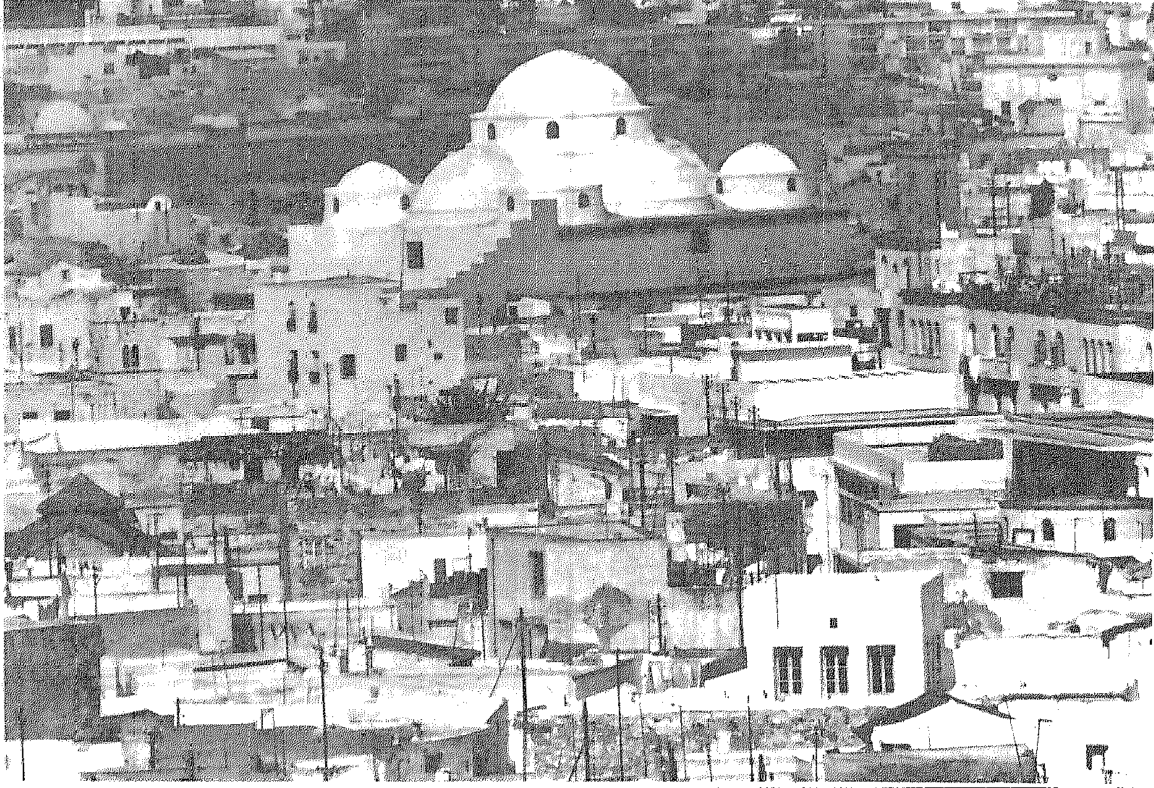
بعثات متبادلة

وقد أرسل ماهر موسى بعثة إلى طرابلس سنة ١٥١٢ لتعزيز التبادل بين البلدين عن طريق فزان[١٤] ومن ذلك أيضا أن الملكة الوالدة عائشة التي حكمت البلاد في النصف الأول من القرن السادس عشر، قد أمرت بارسال بعثة هامة إلى طرابلس[١٥]، وقد ورث ابنها ادريس الوما الذي ولي العرش سنة ١٥٧٠، حسن هذه العلاقات، وقد أمر هو الآخر بارسال بعثة إلى كل من بيلرباي تونس وطرابلس والسلطان العثماني باستنابول، وقد كشفنا في أرشيف رئاسة الوزراء باستنابول على نص رسالتين كان الباب العالي قد وجههما إلى الملك ادريس الوما[١٦]، وقد جاء في أحداهما أنه نظرا لـ : (فرط الموالاة وشدة المصافاة واستدعائكم أن يكون أساس المودة بينا مشيدا وبنيان المحبة والصداقة مؤكدا... وأهالي دياركم في ولايتنا من شاء من الواردين والصادرين وغيرهم من التاجرين والزائرين، حتى يصير سببا لكمال الوداد وباعثا لشدة الاتصال[١٧]...)، وقد أظهر الباب العالي استعداده لمد يد المساعدة للملك ادريس وتقديم أي عون. على ضوء ذلك حرص الملك ادريس من السلطات العثمانية بالشمال الافريقي، وخصوصا من تونس، أن تمده بفريق من الجنود[١٨] لتدريب جيشه على مختلف الأسلحة الحديثة والنارية منها على الخصوص[١٩] والتي كانت متداولة بحكم حركة المد والجزر بين الامبراطوريتين العثمانية والاسبانية طوال القرن السادس عشر. وقد تمكن الملك ادريس بفضل تعليم وخبرة هذا الفريق، أن يكسب جيشه تفوقا ملحوظا مكنه من القضاء على نزاعات القبائل والسيطرة على كامل الجنوب الصحراوي وتنشيط حركة الاتصال التجاري والثقافي بين الجنوب والشمال.

أما في عهد محمد باي، والي طرابلس الغرب، فقد اتصل هو الآخر بسفارة من أمير بورنو مع أوائل القرن السابع عشر[٣٠] وانطلاقا من أواخر القرن السابع عشر عدد امراء بورنو الزيارات لفزان، من ذلك زيارة الملك ماي ادريس الآن وصل إلى مرزق سنة ١٦٩٦ مصحوبا بأكثر من ٧٠٠٠ من عبيده[٢٠م]، بل أن أمير بورنو يقوم شخصيا بزيارة تونس صحبة زوجاته الثلاث في أواخر القرن الثامن عشر ولينزل بعد ذلك بطرابلس[٢١]، وهذا ما يؤكد على تواصل الاتصالات على جميع المستويات. ويكفي الباحث دلالة على ذلك تتبع حركة القوافل المغربية والتي كانت تضم سنويا أكثر من عشرة آلاف شخص، مفضلة الطريق الصحراوي للتحول إلى البقاع المقدسة[٢٢]، وكذلك خروج ركب يتألف من خمسمائة جمل من بنغازي ويضم تجار أهل طرابلس ومسراطة في اتجاه واداي[٢٣]، هذا فضلا عن وصول ثلاث قوافل سنويا، من قلب الصحراء إلى تونس، وهو ما أطلق عليها بالقوافل الغدامسية[٢٤]، وهذه كلها لتزيد من أحكام ربط الصلات وتعميقها وتزاوج عناصرها المختلفة لتكون سببا وراء هذه التأثيرات المتعددة والتي سنأتي على شرحها.

الإدارة العثمانية وحسن العلاقات

إن تعدد الزيارات بين شعوب جنوب الصحراء وتونس وطرابلس قد عرف دفعا جديدا خلال القرن التاسع على الخصوص، وقد نقل الينا الرحالة التونسي المشهور أحمد بن عمر التونسي أن والده كان كثير التنقل بين تونس وطرابلس ومصر والصحراء الكبرى، بل أن والده كان وزيرا للأمير صابين، أمير واداي، وقد خلفه في ذلك الشريف أحمد الفاسي[٢٥]، ومن جهة أخرى نرى أن الادارة العثمانية بطرابلس كانت هي الأخرى حريصة على إقامة حسن العلاقات مع شعوب جنوب الصحراء وتواصلها، وقد كتب والي طرابلس إلى حاكم زندر الشيخ تنميموني بن سليمان[٢٦] وكذلك الشيخ هاشم بن عمر الكانمي، حاكم بورنو بدعوتهما إلى (استمرار المراسلات والمخابرات بيننا، وأن تدوم عواطفكم الكريمة في حق أهالي طرابلس الغرب...)[٢٧]، بل أن السلطان العثماني عبد العزيز قد أرسل هدية بواسطة واليه علي رضا باشا الجزائري، إلى سلطان بورنو[٢٨]، كذلك كان ملك فزان يوفد من حين لآخر سفراء وملك برنوح، وذكر أنه في سنة ١٨٧٥ كان سفيره فوق العادة أحد تجار



□ مدينة تونس.

طرابلس الغرب ومن أسرة بارزة[٢٩].

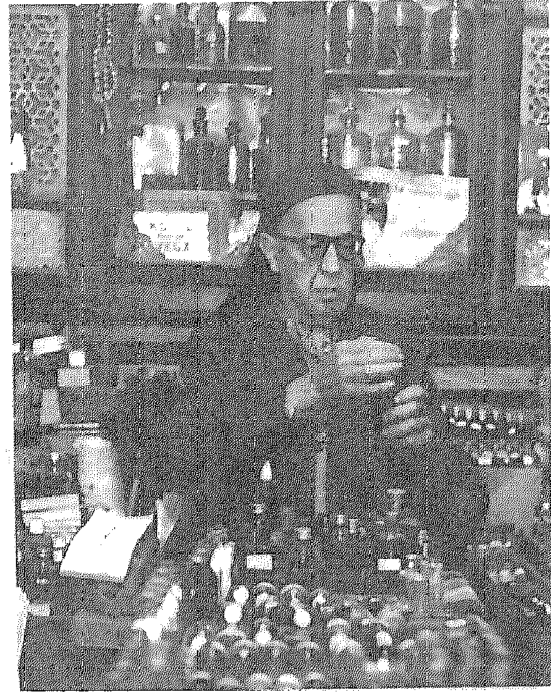
على أن الدور الذي لعبته الادارة العثمانية انطلاقا من طرابلس الغرب، في خلق حركية تأثيرية حضارية في وسط افريقيا وفي قلب الصحراء، يعتبر رئيسيا وكبيرا، ومع هذا ما زلنا نجهل أبعاده وتفاصيله وخلفياته[٣٠] وهو الدور الذي شوهته الدراسات الغربية وغطت عنه.

أقليات أفريقية في طرابلس وتونس

على أن تونس وطرابلس كانتا تحتضنان، باستمرار، أقليات افريقية، وخاصة من غدامس، تعيش بين ظهرانيها، وأن حاكم غات كان كثير التواصل مع بايات تونس، وكان يرسل هدية إلى محمد باي المرادي وحيث استمرت تلك المواصلة مع مرور الزمن[٣١]، بل ان الجالية الأفريقية التجارية كانت تنزل بفندقها المسمى بالطبرية جوار باب العلوج داخل تونس[٣٢]. والذي يؤكد هذا التداخل بين هذه الأقليات الافريقية المقيمة بتونس مثلا، نشرنا لنص في أسفل هذه الدراسة وهي عبارة عن رسالة مخطوطة صغيرة بعنوان: **هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر(*)**، كان قد حررها أحمد التنبكتي[٣٣] بتاريخ ٢ رجب ١٢١٥/٢٠ نوفمبر ١٨٠٠، ورفعها إلى الباي حمودة باشا التونسي، وقد تحدث فيها عن الأساليب الغريبة التي يتبعها أهالي السودان لكل ما يتعلق بأخلاقهم وسلوكهم السيء وعدم اتباعهم الدين الاسلامي وقد شنع بسلوكهم وفساد أخلاقهم وإخلالهم بالأمن، هذا فضلاً عن ممارستهم طرقا وثنية بحتة[٣٤] وعلى الرغم من القيمة الثانوية التاريخية لهذه الرسالة الصغيرة، فانها من جهة أخرى كشفت لنا ولاشك عن الحرية التي تتمتع بها هذه الأقلية ومحافظتها على مميزاتها وطقوسها، على الرغم من عيشها في وسط إسلامي صرف.

على أن البايات التونسيين كثيرا ما أكرموا هذه الجاليات في أشخاص رؤسائها من ذلك أن (أبي الربيع سليمان بن جلاب، عزيز قومه من تقرت من بلاد الصحراء، ويسمى بالباي، وبيتهم من بقايا بني مرين ملوك المغرب... قد أجرى له جراية... وكذلك أبو عبد الله محمد البامري...)[٣٥] أما المشير أحمد الأول فقد جعل

* انظر الهامش رقم ٣٣



□ تجارة العطور بين الشمال والجنوب.

منهم حراسا للبلاد مثل أولاد البلاد يسمون باللواجة وكان لهم مركز للعسة في المكان المعروف اليوم بسباطات نجم قرب بير الأحجار، داخل تونس ولهم عوائد على الدولة يأخذونها كل عام هي خمسة رؤوس من البقر، قفيزان من الملوخية، أربعة أقفزة من القمح...)[٣٦].

ومن جهة أخرى لابد أن نلاحظ أن الوضعية الاجتماعية لهؤلاء الزنوج بتونس كانت مرتبطة بالعائلات التونسية المترفهة شيئا ما[٣٧]، وقد وجد منهم من وصل إلى درجة الولي أمثال سيدي سعد الشوشان الذي أصبح حامي العبيد وأن بركته عمت وشملت مجموع التونسيين كما اصبحت زاويته بعد وفاته بمرناق، ضواحي تونس، مركز تعبد وذا طقوس افريقية[٣٧م]. وعندما يعتق بعضهم لدى وفاة صاحبهم سرعان ما يدمجون في الزعيم المجتمع التونسي ويصبحون ملاكا للأراضي والدور[٣٨]، وحتى الحاج عمر فقد كان يملك مئات من شجر التمر بقفصة وبيتا بتونس[٣٨م].

ومن الطبيعي جدا أن يكون الزواج أحد عناصر هذا التداخل بين الأقلية الافريقية وأهالي تونس وطرابلس، ويكفي دلالة على ذلك أن بعض المسؤولين كانت نساؤهم من الزنجيات، هذا فضلا عن المواطنين أنفسهم فمثلا كان يوسف باشا قرما زلي متزوجا من الليلاء مريومة البيضاء ومن ثلاث أخريات كن عبدات قبل الزواج وحررهن، بل ان احداهن وهي زهيرة السوداء كانت تتمتع بشخصية قوية وغير عادية كما جاء في تقرير أحدى الاوروبيات كانت قد زارتها سنة ١٨٣٠[٣٩]، وكذلك تزوج أحمد بن أبي الضياف المؤرخ التونسي من زنجية وهذا ما يؤكد على عدم وجود أي حائل دون اختلاط شعب الشمال الافريقي بشعوب جنوب الصحراء على الاطلاق.

ومن جهة أخرى تزوج الفقيه محمد الأمين الكاتمي، أصيل فزان والذي عرف برحلاته العديدة من احدى بنات أحد الأمراء ببورنو[٤٠] كما تزوج الماي أحمد، أمير بورنو من السيدة زيلة الطرابلسية[٤١]، ويذكر أحد المؤرخين أن ملوك بورنو كانوا يزوجون بناتهم من الأقلية المغربية العربية المقيمة بالمدينة[٤٢].

النسب العربي

على أن دراسة تأثير مختلف هذه العوامل على المجموعتين سيكون مهما جدا وأول ما يلفت انتباهنا أن أمراء بورنو المتأثرين باشعاع ومكانة أمراء الدولة الحفصية، قد قلدوهم في تبني تلقيبهم بالأمير وبالخليفة[٤٣]، وقد ظهر هذا اللقب في الوثائق والسجلات الرسمية لامراء بورنو. ثم أنهم ارجعوا انتسابهم إلى نسب عربي وسلاطين ملي يدعون مثلا الانتساب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي، وانتسب سلاطين كانم وبورنو إلى حمير، كمااتخذ سلاطين سنغي نسبا عربيا[٤٤] وقد كان اللباس التونسي إلى عهد قريب جدا، سائدا في جهة غات وغدامس حيث كانت (تلبس أعيانهم الجبة التونسية والبرنس المصنوع بالحرير والحرملة والصدرية والمنتان والشاشية التونسية والحزام التونسي وسيوفهم تونسية الأصل وجميع ما يعز عليهم من الأثاث تونسي، حتى إذا أرادوا مدح شيء من السلع قالوا هذا تونسي الأصل)[٤٥]، وقد أكد هذه الظاهرة، من قبل، الرحالة الألماني بارث وكثيرا ما أشاد بلباسه التونسي الجميل وبرنوسه الأبيض[٤٦] أما الرحالة الفرنسي كايي فينقل لنا أن أكلة الكسكسي مألوفة بمدينة تمبكتو[٤٧] وأن

البندقية التونسية الصنع هي التي يحملها الناس هناك[٤٨] بل أن الطوارق يعتقدون أنه لا يوجد بلد في العالم أعظم من مدينة تونس ويرون أن سلعها أحسن سلع مدن الدنيا، بحيث أن التاجر إذا أثبت لهم أن الشيء الذي يريدون شراءه أصله من تونس، اشتروه بما يطلب من غير مساومة)[٤٩] ويضيف الرحالة بارث أن (البضائع التي يرغب فيها الناس بكانم ويقدرونها، هي تلك التي تستجلب من تونس)[٥٠].

وقد سرى هذا التأثير إلى الرغبة في جودة الملبس والمأكل والتطيب بالروائح الطيبة رغم استعمال البخور في كل البيوتات في تمبكتو، قدوة بتونس وفاس وغدامس[٥١]. كما انتقل حب المغاربة للحصان إلى بقية شعوب جنوب الصحراء، وتعددت رغبة الأمراء الأفارقة في الحصول على الجواد العربي الأصيل[٥٢].

أما ميدان التعليم وتبادل الكتاب وتقصي أخبار المخطوطات فتعتبر من المواضيع الهامة جدا لتفسير التحرك الفكري والثقافي المتبادل بين شعوبنا والشعوب الأفريقية، والتي على ضوئها يتحدد مدى الارتباط العضوي بين جذور ثقافتنا المتفاعلة مع الثقافات الافريقية.

التبادل الثقافي

لاشك أن حركة الدعوة الاسلامية قد لونت ابتداء من مطلع العصر الحديث حياة الشعوب الافريقية المتاخمة للشمال الأفريقي بالطابع الاسلامي وأصبح الاسلام يحتل (البنية الأيديولوجية لكل الأنظمة القوية والتي استمرت حتى القرن التاسع عشر)[٥٣]، وهذا خلافاً للرحالة الفرنسي ماج (Mage) الذي ذهب إلى أن أكثر الأمراض التي تعاني منها افريقيا مردها إلى الاسلام[٥٤].

وقد نشطت تلك الدعوة خصوصا بعد اقصاء المسلمين من غرناطة، وقد خرجت جموع كثيرة من المرابطين يدعون سلميا إلى الاسلام مستعملة في ذلك اللغة العربية، وقد التجأ نتيجة لذلك عدد من العلماء والشعراء الأندلسيين عن طريق تونس، إلى مدينة تمبكتو والتي كانت خلال القرن السادس عشر أهم مركز تعليمي في وسط وغرب افريقيا[٥٥]، بل ان جامعة تمبكتو تمثل أحدى المنارات للتقدم الفكري والثقافي في العالم الاسلامي[٥٦].

ومما لاشك فيه أن الوضع الجغرافي للصحراء الكبرى وامتدادها الطبيعي، للشمال الافريقي وحرص القوافل التجارية المغربية على اتباع الخط الصحراوي، هذا فضلاً عن قوافل الحجيج قد ساعد على تطعيم وتغذية الجو التعليمي بما يحمله هؤلاء الرحالة من أنباء وأفكار وأخبار عن العلم والعلماء والكتب والتآليف الجديدة وحلقات التدريس والمناظرات وغيرها من الأنباء التي تؤكد على مدى التواصل الفكري والتتبع الدقيق لكل ما هو جديد، ولاشك أيضاً أن شعوب وسط وغرب افريقيا حتى السودان والتي تبنت المذهب المالكي، محمولة أصلا إلى التطلع الى الشمال الافريقي ذي المذهب المالكي، بدل المشرق، وعلى ضوء ذلك فهناك مؤلفات مغربية كانت قد عرفت وتداولها المثقفون في السودان، ولم تعرف على ذلك العهد، مثل مؤلفات المغيلي، وجامع المعيار الونشريسي)[٥٧] بل أن هؤلاء الأساتذة كانوا قد تبنوا نفس النسق المنهجي للتعليم بأصنافه وباحتضانهم نفس الكتب التي كانت تدرس بتونس أو القاهرة[٥٨] وأن الكتب التاريخية أو الجغرافية المغربية أو التونسية أو القاهرية كانت معروفة لديهم[٥٩].

كذلك كان علماء تمبكتو خلال رحلاتهم كثيري الزيارات لجامع الزيتونة وفاس والقاهرة وأن علماء فاس وتلمسان كانوا يستشارون في القضايا العلمية والقضائية[٦٠] وأن الشريف أحمد الفاسي الذي كان وزيرا للأمير صابين قد استشار علماء طرابلس وأخذ فتوى منهم حول قضية شرعية[٦١] وقد اشتهرت عالميا مدينة تمبكتو ببيع المخطوطات المغربية والتي أصبح التجار عن طريقها، يتحصلون على أكبر ربح على الاطلاق وهو الربح الذي فاق بكثير ما يتحصلونه من السلع الأخرى[٦٢].

والذي يزيدنا اقتناعا بمدى عمق هذا التبادل المعرفي أننا لا نجد شخصية علمية كأحمد بابا التمبكتو[٦٣] على الساحة العربية الاسلامية لها من الادراك والمعرفة في عمقها واتساعها للثقافة الاسلامية والمغربية على الخصوص، ويكفي دلالة

على ذلك في كتابه **نيل الابتهاج بتطوير الديباج**، ليندهش الانسان لشبكة المعلومات الضخمة التي جمعها والتي لا نجد أحدا سواه في عصره، تمكن من ذلك(٦٤)، وتصل دقة المعلومات إلى ذكر مخطوطة **(الرد على الشابية: المرابط عرفة وصحبة)** تأليف الفقيه عمر بن محمد الأنصاري القسنطيني المتوفي سنة ١٥٥٢م. وقد انفرد بذكرها وهي تتناول أحداثا محلية تونسية، كان قد أطلع عليها وعلق عليها، وهي الآن في حكم المفقودة(٦٥).

كذلك كانت جامعة سنكوري قد تمتعت بسمعة كبيرة جدا وأن شهرة أساتذتها قد تجاوزت حدود افريقيا الزنجية لتصل إلى مشارف افريقيا العربية(٦٦).

استمرار التبادل المعرفي

وقد استمر التبادل المعرفي باقتناء الكتب وطلب العلم بين الشمال الافريقي وغرب ووسط(٦٧) وحتى شرق افريقيا، قويا. وقد ذكر لنا ابن أبي الضياف أنه وفد على حاضرة تونس، النحرير الفهامة أبو العباس أحمد السناري مهاجرا لطلب العلم وهو ابن أخي أمير سنار، من أرض الحبشة، وأنه وصل إلى تونس لأخذ العلم على أبي اسحاق ابراهيم الرياحي الذي سمع عنه وبعلمه، وقد أخذ عنه وعن الامام أبي محمد حسن الشريف مقدارا صالحا من صحيح مسلم بشرح الأبي وعن الشيخ اسماعيل التميمي مقدارا وافرا من شرح المحلى لجمع الجوامع، وأخذ عن الشيخ طاهر بن مسعود شرح القطب على الشمسية، وأخذ عن الشيخ الذي قصده شرح السعيد عليها، وله يد طولى في علم الكلام، وخالط علماء تونس وامتزج بهم، شأن الأذكياء، وأعجب بتونس وبأخلاق أهلها مع الواردين اليها، وكان شافعي المذهب، سني العقيدة مع تشيع في حب آل البيت... كما أخذ عن عالم القيروان ابن عبد الله محمد بن بكار الصدام واستجازه، فأجازه...)(٦٨) ولدى مغادرته تونس، استضاف أعيانا من العلماء بداره واحتفل في ضيافتهم احتفال الملوك واشترى غالب التآليف التونسية (كذا)(٦٩).

ولعل أبرز مظهر لهذا التبادل وهذه الملاحقة من أجل العلم والمعرفة ذلك المثل الشعبي الغدامسي المشهور: (غدامس تولد وتونس تربي)... ذلك إذا ازداد مولود لأعيانهم يمكث عندهم بغدامس إلى أن يبلغ سنة سبع أو ثماني سنين إلى العشرة، ثم يرسلونه إلى تونس لقراءة جانب من القرآن العظيم وتعلم الكتابة(٧٠). فلا غرو إذن ان كان المد الثقافي متواصلا وتأثير ذلك كان عميقا على جميع المستويات ومنها اللباس والمآكل كما أشرنا سابقا.

أما والد الرحالة أحمد بن عمر التونسي، فانه عندما قرر الرجوع إلى واداي، وكان وزيرا لأميرها، فانه قد اشترى هدية تتركب من ساعة دقاقة واقتنى أيضا عددا من الكتب(٧١) خاصة وأن الأمير صابين قد اشتهر بحبه للعلم والعلماء(٧٢)، كذلك عندما مر أمير شنقيطي بمصر ثم بتونس أهدى له ثلاثة صناديق مملوءة بأحسن الكتب من طرف والي مصر وباي تونس وبعض الشخصيات العلمية الأخرى(٧٣).

الرحالة التونسي

لا يمكن أن نمر الآن دون أن ننوه بالرحالة الشهير أحمد بن عمر التونسي الذي جاب الصحراء أكثر من مرة وأقام بدارفور وواداي سنين عديدة، ونفذ إلى تلك المجتمعات بحدس وحس المنتمي إليها قاريا ودينيا وثقافيا، وكتب لنا رحلتين تعدان اليوم أهم مادة تاريخية وأساسية للتاريخ الاجتماعي لدارفور وواداي. وأنه لم يفقه اي رحالة شرقيا كان أو أوروبيا في أمانة النقل والوصف وتنوع المادة التي سجلها.

وينقل رحالتنا كيف أنه التقى بالقاضي الطاهر وأخيه زين العابدين والشيخ بن عيسى والشيخ بن غلبون في طرابلس، وكيف أنه حضر بمدينة مرزق دروس هذا العالم الأخير لتفسير القرآن، وقد لعبت مدينة مرزق، وهي محطة القوافل الصحراوية، دورا في هذا الاشعاع المعرفي، وهو الدور الذي ما زلنا نجهل عنه الكثير.

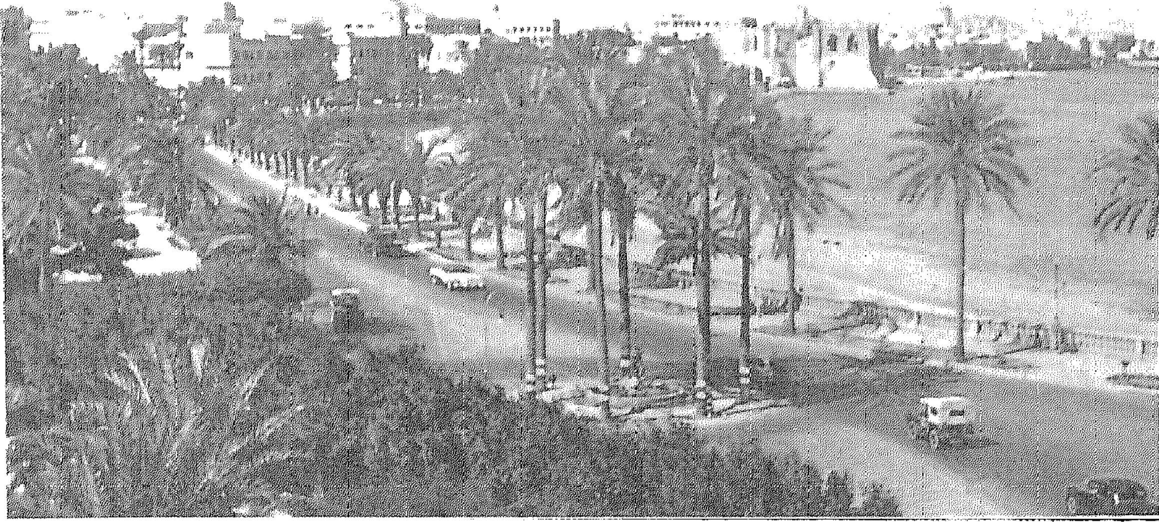
ويذكر الرحالة بارث أنه التقى بشخصية من سنار، كانت قد استخدمت في الجيش العثماني،

ليتولى بعد ذلك بمنطقة واداي تدريس فن استعمال السلاح الناري(٧٤)، وأنه التقى بالحاج

بشير الذي أدهشته فيه أهمية المحادثات التي أجراها معه حول بعض المسائل العلمية كدوران

□ جامع الزيتونة.





□ مدينة طرابلس الغرب.

الأرض والنظام الفلكي وقد عبر عن عميق سروره لتلك المجادلات العلمية(٧٥). وقد لاحظ الرحالة اهتمام الناس بالمخطوطات مقدما لنا وصفا شيقا لأحد قضاة أغادس المسنين وحيث وجده في أحد أركان الجامع يقرأ مخطوطا كانت أوراقه متقطعة(٧٦). أما الرحالة كايي فيؤكد أن الناس في مدينة جنى لا يعرفون إلا الكتابة العربية وكلهم يستطيعون قراءتها ولكن القليل منهم يدرك معانيها(٧٧)، وهذا ما يؤكد على أن اللغة العربية أصبحت لغة العلم والتبادل التجاري والسياسي، وقد تباهى الأفارقة بها والاعتزاز بها وبحبها مع الملاحظة أن انتشارها لم يقض على اللهجات الوطنية المحلية، وحيث احتفظت بها إلى اليوم(٧٨).

إلا أن حركة الاتصال الفكري بين طرابلس وجنوب الصحراء ستعرف دفعا جديدا عن طريق السنوسيين عندما أنشأوا زاوية الجغبوب(٨٠) والتي أصبحت من أهم المراكز العلمية على الساحة العربية الاسلامية، ونشر تعاليمه السمحة، وقد بثوا تعاليمهم عن طريق عدد من المراكز مثل زراياقرو وجنقه الكبيرة وجنقة الصغيرة وبير العلايلي وكانو وزندر وبارادي وجاجدونا والغاشر وعين كلك وقانت وجيل مراح والبرقوات وون وعبيش وغيرها بحيث بلغت مائة وثلاثين زاوية يضاف إليها ست زوايا بتونس(٨١)، وقد اقتنى لهذا الغرض مكتبة هامة بحيث لا يطبع كتاب في العالم باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به(٨٢) وقد اعتبر السنوسيون أنفسهم جنودا لنشر الاسلام واللغة العربية خاصة بين الطوارق الذين يتكلمون لغة بربرية، (وأن هؤلاء منذ اعتقلوا بالطريقة السنوسية صار منهم من يحفظ القرآن العظيم مع حسن مشاركته في العلوم الاسلامية، وكان تخرج منهم أناس عالمون فقهاء كالشيخ الغدامسي صاحب شركة الحزب الكبير للامام الشاذلي، رضي الله عنه)(٨٣) ومن جهة أخرى سهلوا الاتصال عن طريق الحج(٨٤).

المظهر الطرقي

ولا شك أن المظهر الطرقي، هو صيغة أخرى تلقائية لنموذج السلوك الديني والتفكيري المتبادل بين المنطقتين، وأن هذه الطرق كانت وراء أهم التحركات الشعبية(٨٥) والذي كان أحد أقطابها الحاج عمر الذي يعد رمزا للتغيير الاجتماعي والسياسي لكل أفريقيا الصحراوية، خاصة عندما لاحظ لدى رجوعه من جدة عن

طريق القاهرة أنه (لم يشاهد في رحلته من السنغال إلى بورنو رجالا بل أبقارا وغنما)[٨٦].

إن عوامل التأثيرات كانت كثيرة ومن الصعب حصرها ويكفي أن نذكر تأثير القضاء وتشريعاته ونماذج بناء الأسواق السائد في المدن المغربية حيث أقيمت المدن الافريقية في أيام معلومة هذا فضلا عن تخطيط وبناء المخازن والمتاجر والحوانيت التي تتمركز حول المسجد الجامع[٨٧].

الموسيقى

على أنه وجب أن لا نغفل الحديث عن عامل لعب هو الآخر دورا في تغذية الأخذ والعطاء التي اتسمت بها الروابط الثقافية بين الشمال والوسط والغرب الافريقي، وتمثل ذلك في تلوين الموسيقى في كل من تونس وليبيا بالطابع الزنجي البحت، وأن الطبل والمزمار الافريقيين كانا مألوفين جدا، بل أن الغناء الزنجي في طرابلس كان هو السائد في حفلات الأعراس والتي كان يقوم بها مغنيات يعرفن باسم (الزمزمات) ويصاحبه رقص وثيق الصلة بالرقص الافريقي[٨٨].

أما في تونس، فقد اشتهرت المغنيات الزنجيات[٨٩] ولا شك أن (بوسعدية) التي تعتبر مزيجا فولكلوريا افريقيا كان شائعا جدا في الوسط والجنوب التونسي، بل أن طابع الرقص المصاحب للذكر الديني في الزوايا وغيرها، يترجم تماما عن عمق التأثير الافريقي في هذا القطاع[٩٠]. بل ان الحضرة التي تتم اليوم بسيدي منصور الشرياني بصفاقس يقوم بها الرجال والنساء السود، وهو ما أطلق عليه بالحضرة الستانبالية.

إنه من المستحيل علينا في هذه الدراسة السريعة، أن نأتي على مجموع التأثيرات الثقافية المتبادلة بين الشمال والوسط والغرب الافريقي إذ ذلك موضوع متعدد الجوانب وطويل النفس، ويتطلب مجهودا جماعيا، نأمل أن تتعهد مراكز البحث العربية والافريقية القيام به، غير أننا نود عن طريق هذه اللقاءات العلمية أن نسعى إلى إبراز رؤيتنا وشرح منهجيتنا وفرض اختياراتنا لدراسة التاريخ العربي الافريقي، هذا التاريخ الذي ركز أساسا من طرف المدرسة الغربية، على الفترة الاستعمارية دون غيرها[٩١] وأنه آن الأوان أن نولي العلاقات العربية الافريقية اهتماما جديا ومتواصلا. ●

الهوامش

(١) أن تناول المد الثقافي منذ الفتح العربي، يحتاج هو الآخر إلى دراسة مستقلة لتعدد جوانبه، ولذا فضلنا عدم إثارته هنا.

(٢) Robert Brinschvig «La dynastie hafcide. Les Hafcides aux XIIIe et XIV siècles. La Tunisie hafcide. Le XV ème siècle» in, *Initiation à la Tunisie,* p. 95. *Paris 1950*

(٣) ابن أبي الضياف، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج ١، ط ٢، ص ٢٢٨ الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦.

(٤) Jean-Leon L'africain, *Description de L'afrique,* t. II, p.446, Edition A. Epaulard, Paris, 1956.

(٥) محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب) تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراتي، ص ١١٤، بيروت، ١٩٦٥.

(٦) Dr. Henri Barth, *Voyage et dècouvertes dans L'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855,* traduit de L'allemand par Paul Ithier,.. t.II, p. 97, Paris, 1860.

(٧) Rishmond Palmer, *The Bornu Sahara and Sudan,* p. 224, London 1936.

(٨) **المصدر نفسه.**

(٩) حسن ابراهيم حسن، انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى، ص ١١٢، منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٧.

(١٠) P. Robert Cornevin, *Histoire des peuples de L'Afrique noire,* 2 édition, p. 154 Paris, 1962.

(١١) **المصدر نفسه.**

(١٢) Joseph M. Cuoq, *Recueil des sources arabes concernant L'Afrique Occidantale* du VIIIe *au Siècles* (Bilad Al-Sudan) p. 209 et p. 352, Paris, 1975.

— Palmer, op.cit., p. 186

راجع أيضا:

— الشاطر بصيلي عبد الجليل، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن

السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد، ص ٤١٨، القاهرة ١٩٧٢.

— ابن أبي الضياف، **نفس المصدر**، ج ١ ص ٢، ص ٢٠٤.

— ابراهيم علي طرخان: **امبراطورية البونو الاسلامية**، ص ٨٦، القاهرة، ١٩٧٥.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ١٧٤.

(١٤) Charles Féraud, *Annales Tripolitaines,* p. 34, Tunis, 1927.

(١٥) الشاطر بصيلي عبد الجليل، **نفس المصدر**، ص ٤٢٠.

(١٦) راجع نص هاتين الوثيقتين رقم ١ و ٢ والمنشورتين أثر هاته الدراسة، ص ٠٠٠٠٠.

(١٧) راجع متن الوثيقة ١ أسفله، ص ٠٠٠٠.

(١٨) R. et M., *Histoire de L'Afrique, des Origines à la 2e guerre mondiale,* p. 205, 4e édition, Paris.

(١٩) د. عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين ١٤٩٨ — ١٥٩١**، ص ٩٠، الجزائر ١٩٧١. راجع أيضا د. ابراهيم علي طرخان، **نفس المصدر**، ص ١٦٨.

(٢٠) Féraud, op.cit., p. 100.

(٢٠ م) Michel Abitbol, Tombouctou et les Arma, p. 214, Maisonneuve, Paris, 1980.

نلفت الانتباه إلى أهمية هذا الكتاب الذي أطلعنا عليه بعد تحريرنا لهاته الدراسة.

(٢١) Hallet, Robin, *The Penetration of Africa. European Interprise and* Exploration Princopally in Northern and Western Africa, Vol. 1, London, 1965.

مذكور في: **مصطفى عبد الله بعيو، المختار في مراجع تاريخ ليبيا**، ج ٢، ص ١٣٢ بيروت، ١٩٧٢.

(٢٢) Le Cheikh Mohamed Bin Omar El-Tounsy, *Voyages au Ouaday,* traduit de L'arabe par le Dr. Perron, p. 704, Paris, *1851*

وهذا مأخوذ من تعليق المترجم على كلام الشيخ الرحالة.

(٢٣) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ٩٤.

(٢٤) Dr. Louis Frank, *Tunis, Description de cette Régence,* p. 122, Paris, 1850.

(٢٥) Cheikh Mohamed Bin Omar El-Tounsy, *op.cit.,* p. 500.

(٢٦) **وثائق تاريخ ليبيا، الوثائق العثمانية ١٨٨١ — ١٩١١**، ترتيب ومراجعة وجمع أحمد صدقي الدجاني، جمع وترجمة عبد السلام أدهم، ص ٥٠ بنغازي، ١٩٧٤.

(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ٥١، رسالة بتاريخ ٦ شعبان ١٣٠٣/١٠ ماي ١٨٨٦.

(٢٨) أتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١**، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي ص ٤٠٤، بيروت، ١٩٧٤.

(٢٩) د. محمد المدني الخضيري: (الطريق من طرابلس إلى فزان) المنشور في: **مجلة البحوث التاريخية**، السنة الأولى، العدد ١ ص ١٠٧، طرابلس، ١٩٧٨.

(٣٠) مصطفى عبد الله بعير، **نفس المصدر**، ج ٢، ص ١٥، يذكر نقلا عن أحد المراجع أن منطقة يفرن كانت مركزا للسنجق العثماني وكانت نالوت وغدامس وفساطو وزوارة والجوش تابعة للادارة العثمانية.

(٣١) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١١٥.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ١١٦، راجع أيضاً:

د. حبيب وداعة الحسناوي (ظروف وأبعاد امتداد الادارة العثمانية الجديدة لغدامس سنة ١٨٤٢ كما ترويها رسالة غدامسية)، المنشور في: **مجلة البحوث التاريخية**، السنة الثانية عدد ١، ص ٤١ — ٤٣، منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، طرابلس، ١٩٨٠، وحين نلاحظ تعدد الزيارات الفردية للغدامسيين لتونس، هذا ما يترجم عن قوة واستمرارية هذا التبادل.

ومن جهة أخرى ذكر لنا الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١٣٠ — ١٣١، أن أعيان الغدامسية بتونس يفوق عددهم الثلاثمائة نفس، وأخص منهم بالذكر... الحاج عمر الوحشي، محمد الطاهر الوحشي الحاج الطاهر بن هارون، الحاج محمد بن الحاج أحمد الثيني، محمد بن بلقاسم بن الواحد، أبو بكر بن الحاج، الحاج محمد بن عزي واخوانه، البشير بن الامام، قاسم بن علي محلا، محمد بن وليد، محمد بوزمالة واخوانه، الحاج محمد هيبة واخوانه، متيضن القنجي واخوانه، الحاج علي الثيني واخوانه، الحاج محمد الثيني عرف الناظر، محمد بن جميع، محمد بن سالم ابن علي، قاسم بن موسى بن موسى بن عنكس، محمد بن عمر الوحشي، أحمد بن الحاج قاسم وأبناء عمه، محمد بن محمد الزملي، محمد بن عبد الرحمن بن رشيد، محمد بن أحمد بن رشيد، ابناء محمد بن محمد بن رشيد، أبناء الحاج علي بن رشيد، أبناء الحاج علي ديفو، خميس بن علي وادة، الحاج محمد بن خالد، محمد وأحمد أبناء القاسم بن أحمد محمد وخميس أبناء جردو، الحاج علي مسوي، محمد بن علي بن عمر الثيني، القاطنين بالممالك السودانية ولهم خبرة عظيمة بأحوال السودان وممالكه وجدودهم منذ أحقاب متطاولة بتونس يرون أنفسهم كأبناء تونس في جميع الحقوق...).

(٣٣) **المكتبة الوطنية التونسية** ٩٥٦٤ مجموع ٦٣ ب وتوجد نسخة أخرى تحت رقم ٢١١٨٣ مجموع ٥ ب. لقد أحاطني الزميل الأستاذ محمد الحبيب الهيلة بوجود هاته الرسالة، ليتفضل بتقديم شكري وامتناني له.

(٣٤) د. رشاد الامام، **سياسة حمودة باشا في تونس،** ١٧٨٢ ــ ١٨١٤، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢، منشورات كلية الآداب، تونس، ١٩٨٠.

(٣٥) ابن أبي الضياف، **نفس المصدر،** ج ٤، ص ١٧٥، تونس، ١٩٦٣.

(٣٦) الحشائشي، **نفس المصدر،** ص ١٣١.

(٣٧) Lucette Valensi, «Esclaves Chrétiens et esclaves noires à Tunis au XVIII siècle in, Annales. E.S.C., 22/6, p. 1279, Paris, 1968.

(٣٧ م) M.H. Cherif, «Homme et pouvoir dans la Tunisie de L'époque moderne» in *Annales E.S.C.* n° 34, 1980, pp. 585-586.

(٣٨) **المصدر نفسه.**

(٣٨م) Michel Abitbol, *op.cit,* p.211.

(٣٩) مصطفى عبد الله بعيو، **نفس المصدر،** ج ٣، ص ١٢١ ــ ١٢٢.

(٤٠) Palmer, op.cit., p. III.

(٤١) **المصدر نفسه،** ص ٢٥٨.

(٤٢) Marcel Emerit, «Les Liaisons terrestres entre le Soudan et L'Afrique du Nord au début du XIXe Siècles» in, *Travaux de L'Institut de Recherches* Sahariènnes, t.XI, 1954, p. 38.

(٤٣) — Palmer, *op.cit.,*p. 186

(٤٤) حسن أحمد محمد، (دور العرب في نشر الحضارة في غرب افريقيا) المنشور في **المجلة التاريخية المصرية،** عدد ١٤، ص ٧٩ ــ ٨٠، القاهرة، ١٩٦٨.

(٤٥) الحشائشي، **نفس المصدر،** ص ١٢٣.

(٤٦) Barth, *op.cit.*, t.II, p. 9.

(٤٧) René Cailli, *Journal d'un voyage à Timboctou* et à Jenné, dans L'Afrique Centrale, p. 301 Paris 1830.

(٤٨) **المصدر نفسه،** ص ٢٩٧.

(٤٩) الحشائشي، **نفس المصدر،** ص ١٢٢.

(٥٠) Barth, *op.cit*, t.II, p. 28.

(٥١) Félix Dubois, *Tombouctou, la m Mystérieuse, p.* 300, Paris, 1947, Léon L'Africain, op. cit., t.II, p. 468.

(٥٢) راجع أيضاً:

Barth, *op.cit., T.II, p. 105.*

(٥٣) Ibrahim Baba Kadé et Elikia M'Bokolo, *La Dislocation des Grands Empires,* p. 9 Paris, 1978.

(٥٤) Eugène Mage, *Voyage au Soudan Occidental* (1863-1866), p. 303, èditions Karthela, Paris, 1980.

(٥٥) عبد القادر زبادية، (ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن السادس عشر)، المنشور في: **المجلة التاريخية المغربية،** عدد ٨/٧، تونس، ١٩٧٧.

(٥٦) Galbararth Welch, *L'Afrique avant la colonisation,* p. 13, Paris, 1970.

(٥٧) عبد القادر زبادية، **مملكة... نفس المصدر،** ص ١٤٨.

(٥٨) A. Cherbonneau, «Histoire de la Littérature arabe au Soudan» in, *Journal Asiatique,* **t. IV, 1855.**

(٥٩) Dubois, *Op.cit.,* **p.** 317.

(٦٠) **المصدر نفسه،** ص ٣١٥ و ٣٢٩.

(٦١) Ahmed bin Omar El-Tounsy, *.op.cit.,* p. 221.

(٦٢) راجع أيضاً:

Léon L'Africain, *op.cit.,* T.II pp. 468-469.

احمد بابا التمبكتو **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ص ٧٧ ضيف القاهرة ١٣٢٩هـ/١٩١١م، فقد ذكر لنا هذه القصة الطريفة والتي تعكس حرص الناس، فضلا عن المسؤولين على اقتناء الكتب: (إن أحمد بن محمد اليسيلي، الشيخ العالم المفسر، أخذ عن الامام ابن عرفة وابي الحسن البطروني والولي ابن خلدون وأبي مهدي عيسى الغبريني وغيرهم، له تقييد جليل في التفسير قيده عن ابن عرفة فيه فوائد وزوائد ونكت ووقع له فيه قصة، وذلك لما الفه سمع بذلك الأمير الفقيه الحسين بن السلطان أبي العباس الحفصي، فراسله فيه وطلبه منه، فامتنع وماطله أياما، ثم أرسل إليه رسله أن لا يفارقوه حتى يسلمه لهم... (وقد بيع هذا التقييد) في شركته، فسافر به مشتريه إلى بلاد السودان فبقي أهل تونس لا شعور لهم به، فكذلك كان أصل نسخة من نسخة السودان ومن هناك انتشر...).

(٦٣) E. Levi-Provençal, «Ahmed Baba» in, *Encyclopédie de L'Islam,* nouvelle édition ٩.I, P.288.

راجع أيضاً الرسالة الجامعية التالية:

Mohmoud A.Zouber, *Ahmed Baba de Tombouctou* (1556-1627) *sa vie et son oeuvre,* 213p Maisonneuve, Paris, 1977.

(٦٤) من المدهش حقا أن نعثر في هذا الكتاب على سجل دقيق لكل الاعلام التونسيين الزيتونيين وتآليفهم من العصر الإسلامي الأول حتى أواخر القرن السادس

عشر الميلادي. وهذا ما لم يقم به أحد سواه.

(٦٥) أحمد باب التمبكتي، نيل الابتهاج... نفس المصدر ص ١٩٧، نقلناه عن: د. علي الشابي، العارف بالله احمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية، ص ٧٧، تونس، ١٩٧٩.

(٦٦) Dubois, *op.cit.*, pp. 254-255.

(٦٧) Denise Bouche, *L'Enseignement dans le territoire français de L'Afrique Occidentale de 1817 à 1920, Lille,* 1975.

إننا نستغرب أن تخصص رسالة دكتورا دولة عن التعليم في غرب افريقيا منذ سنة ١٨١٧ ولا تعرج المؤلفة عن حيوية هذا الارتباط الثقافي والتعليمي بين الشمال الافريقي وغربيه، وكل ما ذكرته أن الحكام الفرنسيين قد قاموا بارسال بعض تلاميذ الزعماء المحليين إلى تونس عندما طبق النظام العربي ــ الفرنسي على بعض المعاهد في أواخر القرن الماضي، راجع الصفحات ٣٥١ و ٣٥٤، من الرسالة المذكورة أعلاه.

(٦٨) ابن أبي الضياف، نفس المصدر، ج ٣، ص ٢، ص ١٦٠ ــ ١٦٢.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ١٦٢ ــ ١٦٣.

(٧٠) الحشائشي، نفس المصدر، ص ١٢٧.

(٧١) El-Tounsy, *op.cit.*, p. 589.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٥٠١.

(٧٣) Pierre Boyer, «Un roi de Changuiti à Alger en 1832», in, *Le Sahara. Rapports et Contacts Humains*, p. 78, Aix, 1967.

(٧٤) Barth, *op.cit.*, t.II, p. 122.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٧٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٤.

(٧٧) (Caillé *op.cit.*, t.II, p. 209) وهذه هي جملته:

Les Jennés ne reconnaissent d'autre écriture que celle des Arabes, Presque tous peuvent la Lire, mais peu en connaissent la signification.

(٧٨) جمال زكرياء (الروابط العربية الافريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر) المنشور في: العلاقات العربية الافريقية: دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، ص ٧، القاهرة، ١٩٧٧...

(٧٩) وثائق... نفس المصدر، ص ٥٠.

(٨٠) أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، ص ٢٨٥، بيروت، ١٩٦٧.

راجع أيضاً: جمال زكريا، الأصول... نفس المصدر، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٦.

(٨١) الدجاني، الحركة... نفس المصدر، ص ٢٨٠.

(٨٢) الحشائشي، نفس المصدر، ص ١٥١ ــ ١٥٢.

(٨٣) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٨٤) Marc Fournel, *La Tripolitaine. Les routes du Soudan,* p. 216, Paris, 1887.

(٨٥) Fernand Dumont, «Ahmadou Bomba (1850-1817). Apôtre de la non -violence» in, *L'Académie des Sciences d'Outre-Mer,* tXXXVI, 1976.

(٨٦) E. Mage, *op.cit,* p. 88.

(٨٧) نعيم فراح، حضارة الاسلام وحضارة أوروبا في افريقيا الغربية، ص ١٤٠ ــ ١٤٦ الجزائر، ١٩٧٥.

(٨٨) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي او طرابلس الغرب في أواخر العهد العثماني ١٨٨٢ ــ ١٩١١، ص ٢٩١، القاهرة ١٩٧١.

(٨٩) *Le Domaine colonial français,* t.II, p. 136, Paris, 1946.

نشرت صورة، من أصل ملون، لنموذج المغنين والمغنيات الزنوج بتونس خلال القرن ١٩.

(٩٠) يحتاج هذا الموضوع بحثا مستقلا، نأمل أن يقوم به ذوو الاختصاص.

(٩١) Jean Devise, «L'Histoires de L'Afrique. Enseignement et Recherche» in *L'Académie des Sciences d'Outre-Mer,* t XXXVI, 3, p. 616.

(*) نص المحاضرة التي ألقيت في الخرطوم في نطاق المؤتمر الذي نظمته المنظمة العربية للتربية والثقافة حول العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية من ٢١ إلى ٢٤ فيفري ١٩٨١. وقد حصرنا بحثنا لكل ما يتعلق بتونس وليبيا كما طلبت منا المنظمة ذلك، وهذا وفقا لتوزيع الاختصاصات بالنسبة لكل المشاركين، وقد التزمنا تماما بذلك.

كما نشر هذا البحث بادىء الأمر بالعربية والفرنسية في: المجلة التاريخية المغربية عدد ٢١ ــ ٢٢، تونس ١٩٨١ ثم في كتيب مستقل ضم نفس الدراسة باللغتين، مع ملاحقها وفهارسها في منشورات المجلة التاريخية المغربية عدد ٧، تونس ١٩٨١.

الفكر العربي الإسلامي

أعلاماً ومؤلفات ٧

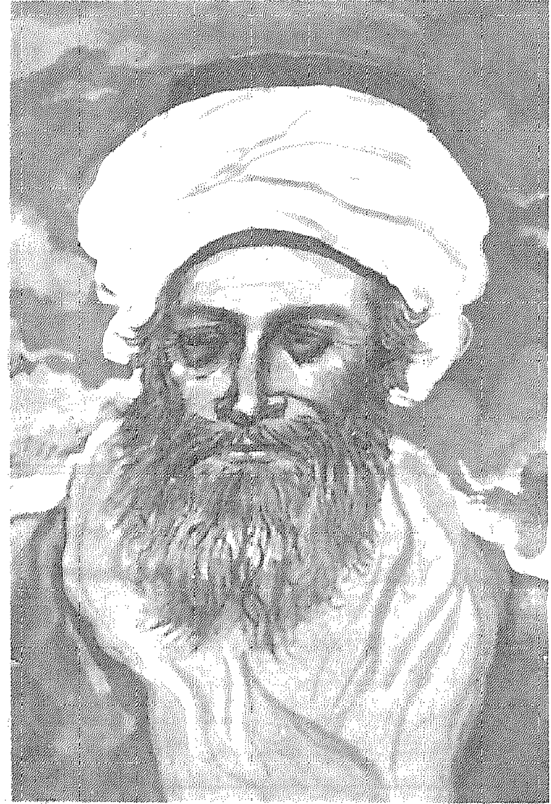
د. نقولا زيادة

ابن خلدون

في عصر كاد فيه الحكم العربي ينهار في كل أقطار الوطن العربي، وتسلم زمام الأمور أعاجم، وتشرزمت الدولة إلى دويلات، واندحر الفكر، وجمدت الحضارة والثقافة، وغلب الزيف، فيما الحكام مشغولون بصراعات دمرت كل شيء، حتى بنى المجتمع الأساسي، ظهر عبقري عربي من أصل حضرمي، حداه الواقع إلى التفكير والتأمل في الأسباب، وما جرت من نتائج، فاستقرأ الماضي والحاضر، واستشرف المستقبل، فكان حصيلة كل ذلك، كتاب في التاريخ، تعتبر مقدمته أول كتاب — في العالم — في الفكر الاجتماعي. لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن بعض آرائها سبقت كونت، وهيجل، وماركس، وما تزال ذات قيمة كبرى لشمولها وعمقها.

— ١ —

في القرن الثامن/ الرابع عشر كان المغرب العربي، من طرابلس إلى مراكش، تتنازعه دولتان على شيء من المنعة والقوة هما بنو مرين في المغرب وبنو حفص في تونس، إلا أنه لم يكن لأي من هاتين الدولتين سيطرة مستمرة على الرقعة التي كانت تخضع لها بين الفينة والفينة. فكثيراً ما كان يقوم الطامعون بالعرش على صاحب الأمر، فتقع حروب أهلية يهلك فيها المتقاتلون وهم أبناء أسرة واحدة من حيث زعامتهم، وأبناء قبيلة واحدة من حيث الاتباع. وقد يقتتل الأخ والأخ في هذه الحروب. وكانت الرقعة الواقعة بين المغرب وتونس، وهي التي كانت تسمى قبلاً المغرب الأوسط وهي الجزائر اليوم، تتعرض لكل ما يمكن أن يقدره المرء من خلاف ومطامع وحروب وفتن. وإذا أضفنا إلى هذا ما كانت



□ ابن خلدون.

تعانيه أسبانية الاسلامية من خسارة في المدن والدساكر بسبب الفتوح الاسبانية، أدركنا مدى ما كان يضيق به المغاربة، على أوسع تعبير، من آثار الحروب والقتال والغرم والتشريد والمصادرة.

وقد كانت الحالة في الشرق العربي ادعى إلى الطمأنينة بعض الشيء. فان قيام دولة المماليك منذ أواسط القرن السابع/ الثالث عشر في مصر، وامتداد نفوذها بحيث شمل ديار الشام والحجاز، وسيطرة سلاطينها على الأمور وامتلاكهم ناصيتها كل ذلك أدى إلى استقرار في الحكم والادارة. ومع أن الفترة لم تخل من ثورة أو عصيان، فإن أثر أي من هذين لم يكن يتعدى جزءا صغيرا من الامبراطورية الواسعة.

والخطر الوحيد الذي كان يهدد الشرق العربي، وخاصة ديار الشام، هو المغول (التتار). ذلك بأن هؤلاء القوم، بعد أن دمروا بغداد سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨، أخذوا يغيرون على البلاد الواقعة إلى غربها. فكان لهم غزوتان عنيفتان على ديار الشام الواحدة بقيادة غازان (قازان) سنة ٦٩٩/١٢٩٨ والثانية بقيادة تيمورلنك سنة ٨٠٣/١٤٠٠ ــ ١٤٠١.

في هذا العصر المضطرب، القرن الثامن/ الرابع عشر، عاش واحد من كبار مفكري العرب اطلاقا هو ابن خلدون. وقد امتدت حياة الرجل زمنا من سنة ٧٣٢/ ١٣٣٢ إلى سنة ٨٠٨/ ١٤٠٦، أما الرقعة التي شملتها هذه الحياة النشيطة فتمتد من فاس إلى دمشق.

ــ ٢ ــ

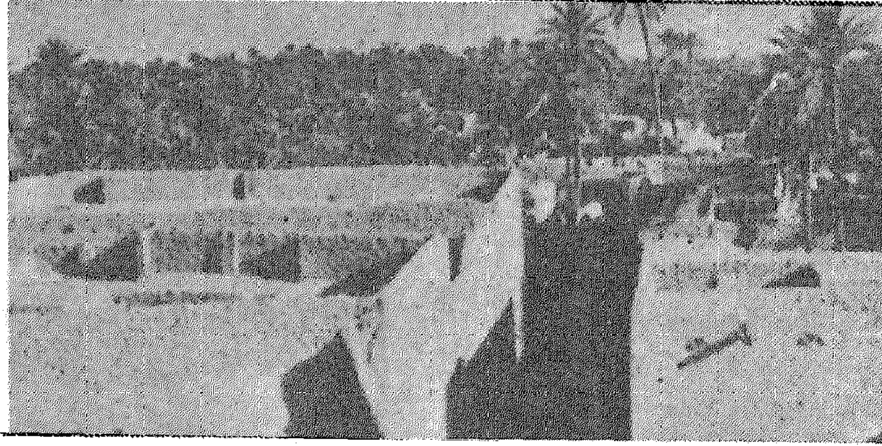
ولد ابن خلدون في تونس سنة ٧٣٢/ ١٣٣٢، وهو متحدر من أسرة من مهاجرة الأندلس، هبط جده الأعلى إليها من أشبيلية، لما رأى الخطر الاسباني يحدق بها في أواسط القرن السابع/ الثالث عشر. (والأسرة تنتمي أصلا إلى حضرموت، ومن ثم فكثيرا ما كان ابن خلدون يضيف الحضرمي إلى اسمه). ونال على يد آله وعلماء تونس خير ما كان عندهم من علم وثقافة، فقد حفظ القرآن الكريم ووعاه تفسيرا، وعرف الحديث اسنادا ومعنى، وتفقه في الشرع، وثقف النحو والبلاغة ودرى الشعر مبنى ومحتوى. ولم يكن ذلك غريبا. فقد كانت المدينة يومها تعج بأهل العلم والمعرفة ممن لجأ إليها من الأندلس وغيرها. وكان ابن خلدون ذا ألمعية لم تخف على أولي الأمر. لذلك نجد أنه لا يكاد يبلغ العشرين من عمره حتى يكون «صاحب العلامة» لوزير تونس ابن تافراكين، الذي استبد بالأمر نيابة عن السلطان الحدث. وكان ابن خلدون قد فقد أبويه في الطاعون المعروف في اوروبة باسم الموت الأسود (الذي انتشر سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨ وما بعدها من سمرقند إلى المغرب، كما عصف بمعظم البلاد الأوروبية) وهم بمغادرة تونس إلى فاس لاحقا بالعديد من أساتذته وشيوخه، إلا أن أخاه حال دونه وتحقيق رغبته، فظل وأصبح كاتب العلامة.

وفي سنة ٧٥٣/ ١٣٥٢ انكسر عسكر ابن تافراكين وابن خلدون فيه، فخشي هذا على نفسه وهرب وطوف في البلاد حتى وصل بسكرة (في الجزائر). وكان أبو عنان المريني قد تولى عرش فاس (١٣٥١/٧٥٢) واستولى على تلمسان لاعادتها إلى سلطان آبائه (سنة ٧٥٣/ ١٣٥٢)

فسعى ابن خلدون إلى لقائه وانتهى به الأمر أن ضم إلى حاشيته (١٣٥٤/٧٥٥) عضوا في مجلسه العلمي ثم كاتبا وموقعا. وهذا يسر له راحة واطمئنانا بحيث أنه صرف بعض وقته في طلب العلم والمطالعة والكتابة في بعض الموضوعات المألوفة. وقد ذكر ذلك نفسه في التعريف فقال «وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب وأهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة وحصلت من الافادة منهم على البغية».

وشغل ابن خلدون نفسه، وهو في بلاط فاس، بالسياسة لا عملاً ورأياً فحسب، ولكن مؤامرات أيضا، فانتهى به الأمر الى قضاء سنتين في السجن. (٧٥٨ ــ ٧٦٠/ ١٣٥٦ ــ ١٣٥٨). وعندخروجه من السجن ظل في فاس، في الكتابة والتوقيع، إلى سنة ١٣٦١/٧٦٤، مع أنه تقلب في العمل مع سلطانين ووزيرين!

وهكذا ففي الفترة الممتدة من ١٣٥٠/٧٥١ إلى ١٣٦١/٧٦٤ أتيح لابن خلدون أن يجرب وظائف الدولة ويختبر السجن ويتقلب في صحبة ثلاثة أمراء وثلاثة وزراء. وكان هذا كافيا لأن يجعل منه رجل سياسة فيما تبقى من عمره، وإن لم يفقده الرغبة في متابعة الدرس والتحصيل والنظر والتأمل.



□ واحة بسكرة (الجزائر)

ـ ٣ ـ

خرج ابن خلدون من فاس إلى سبتة في طريقه إلى غرناطة ١٣٦١/٧٦٤) فجاز إلى جبل الفتح (جبل طارق). وكان بينه وبين سلطان غرناطة صداقة، كما كانت تربط ابن خلدون ووزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب صلة ود. فلما وصل غرناطة احتفى به سلطانها ووزيره وجعله السلطان من خواصه. وانتدبه في السنة التالية في سفارة إلى ملك قشتالة الاسباني، فقام بمهمته خير قيام، وأدت سفارته إلى عقد صلح بين المدينتين.

لكن ابن خلدون تعرض هنا للسعايات والوشاية، كما تعرض لذلك من قبل ومن بعد في مصر. ولعل مقدرة ابن خلدون وطموحه هما اللذان كانا يثيران حوله الريب والشكوك، فينتهي الأمر به إلى سجن أو عزل أو إقصاء. وشعر ابن خلدون باظلام الجو بينه وبين ابن الخطيب، وخشي عاقبة الأمور فرحل عن غرناطة.

ووافق ذلك أن دعاه أمير بجاية الحفصي ليكون في بلاطه، فاستأذن سلطان غرناطة في ذلك، وانتقل إلى بجاية (٧٦٦/ ١٣٦٤) حيث استقبل استقبالا حافلا وولي الحجابة. كما ولي الخطابة بجامع القصبة، فكان له أرفع مناصب السياسة والعلم.

وقد دامت هذه الحالة سنة وبعض السنة. ثم قضى ابن خلدون نحو سبع سنين في بسكرة وهو يعمل في المؤامرات وتحريض الاعراب على الثورة والقتال متنقلا من جانب إلى جانب. وانتقل بعدها إلى فاس حيث قضى سنتين بعيدا عن وظائف الدولة. وأجاز سنة ٧٧٦/ ١٣٧٤ إلى غرناطة ثانية لكن زيارته هذه كانت قصيرة.

— ٤ —

عاد ابن خلدون إلى تلمسان وفي نفسه أن يعزف عن السياسة. لكن سلطانها أبو حمو ندبه للطواف بين العرب داعية له. فخرج من تلمسان واستقر في منازل أصدقائه بني عريف الذين انزلوه في قلعة ابن سلامة (في مقاطعة وهران). فأقام فيها أربعة أعوام منقطعا إلى التأليف والدرس. هناك بدأ العمل في تاريخه الكبير الذي سماه «كتاب العبر»، بادئا بالمقدمة. يقول ابن خلدون عن هذه الفترة التي اقامها في قلعة ابن سلامة: «فأقمت بها أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة. فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتالفت نتائجها. وأتم المقدمة، في صيغتها الأولى طبعا، في خمسة أشهر فقط. ثم انتقل إلى التاريخ نفسه. لكنه لم يلبث أن أدرك أنه بحاجة إلى مكتبة عامرة ومصادر للتاريخ وافرة، فاعتزم الرجوع إلى تونس والاستقرار فيها. وأذن له سلطان تونس بذلك فدخلها في سنة ٧٨٠/ ١٣٧٨، بعد غيبة دامت عشرين سنة.

صرف ابن خلدون أربع سنوات في تونس منقطعا إلى الكتابة والتأليف حتى فرغ من كتابه ورفع نسخته إلى سلطان تونس (السلطان أبي العباس). وفي أثناء إقامته بتونس صحبه السلطان في أحدى حملاته، وخشي أن يتكرر طلب السلطان وأن يعود إلى خدمة الدولة. فقرر الخروج من تونس، بل من المغرب كله، فذهب إلى مصر.

— ٥ —

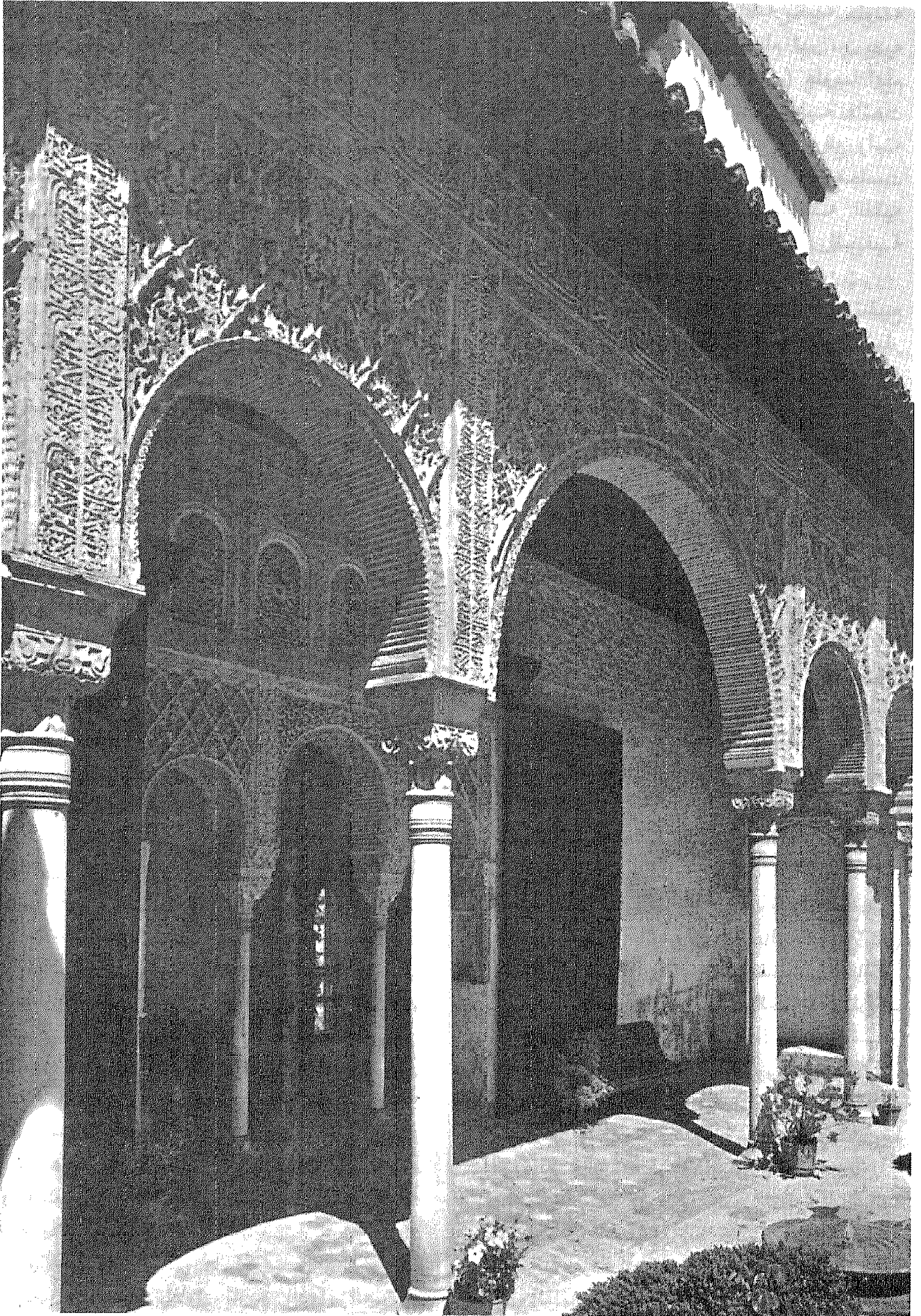
في سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢ استأذن ابن خلدون صاحب تونس، السلطان أبا العباس، في اداء فريضة الحج، وما كان مثل هذا الطلب ليرفض. وكانت في الميناء سفينة تبغي الاقلاع إلى الاسكندرية، فذهب معها. إلا أنه، لما بلغ القاهرة، لم يذهب إلى الحجاز رأساً، بل ظل فيها وتحين الفرص حتى قدم إلى السلطان برقوق صاحب مصر. وأكثر الذين درسوا ابن خلدون يرون أنه هو الذي سعى إلى السلطان. وقد أحسن إليه برقوق فولاه التدريس في المدرسة القمحية ثم في الصرغتمشية. ولم يلبث ابن خدون أن ولي قضاء المالكية، وهو المنصب الذي تولاه ست مرات، عزل في خمس منها، وتوفي وهو في الولاية السادسة.

وبالاضافة إلى عمله في التدريس وتوليه خطة القضاء، فقد كان دائم الاتصال بأصحابه وأصدقائه في المغرب، بحيث أنه كان صلة الوصل بين السلطان برقوق وبين كبار المغاربة. وكان هؤلاء إذا هبطوا القاهرة شعروا بأن ابن خلدون كان وكيلا لهم.

ومن القاهرة أدى ابن خلدون فريضة الحج غير مرة واحدة، كما أنه زار دمشق وبيت المقدس.

في سنة ٨٠٣/ ١٤٠٠ — ١٤٠١ وصل تيمورلنك بجيوشه إلى حلب واتجه بعدها نحو دمشق. ففزع الناصر فرج (وكان قد خلف أباه برقوق على العرش) وخرج بجيوشه من القاهرة للدفاع عن دمشق. وكان فيمن أخرج معه ابن خلدون وغيره من القضاة والفقهاء. إلا أن الناصر فرج لم يلبث أن عاد أدراجه لأنه بلغه خبر مؤامرة في القاهرة لاقصائه عن العرش. وقد وصف ابن خلدون ما جرى بعد ذلك بقوله:

«وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تمر (تيمورلنك) على بيوتهم وحرمهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكره. فلم يوافقوه. وخرج القاضي برهان الدين ابن مفلح الحنبلي ومعه شيخ الفقراء بزاوية (...)، فأجابهم إلى التأمين، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة. فخرجوا إليه متدلين من السور بما صحبهم من التقدمة، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال. واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد... وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرت مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت. وبتنا تلك الليلة على أهبة



□ روائع الفن الإسلامي في مدينة غرناطة.

الخروج. فحدث لبعض الناس تشاجر في المسجد الجامع، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول. وبلغني الخبر في جوف الليل، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحرا إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلي من السور، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر فأبوا علي أولا، ثم اصخوا لي، ودلوني من السور. فوجدت بطانته (بطانة تيمورلنك) عند الباب ونائبه الذي عينه للولاية على دمشق، واسمه شاه ملك، من بني حقطاي أهل عصابته. فحييتهم وحيوني، وفديت وفدوني، وقدم لي شاة ملك مركوبا وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه. فلما وقفت بالباب خرج الاذن باجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه. ثم زيد في التعريف باسمي أني القاضي المالكي المغربي. فاستدعاني، ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئا على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه ويشير بها إلى عصب المغل (المغول) جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت ايماءة الخضوع. فرفع رأسه ومد يده إلي فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا...».

وعمل ابن خلدون وهو في مصر على تنقيح المقدمة واتمام التاريخ بعد اطلاعه على أخبار الأمم والشعوب الأخرى. كما أنه وضع كتابه «التعريف».

وانتقل ابن خلدون إلى رحمته تعالى سنة ١٤٠٦/٨٠٨.

لابن خلدون دراسات صغيرة لعله وضعها في مطلع شبابه، لكنها ليست بذات قيمة، حتى أنه هو لم يذكرها في عداد مؤلفاته الحرية بالاهتمام. أما الكتب التي يعنينا امرها فهي ثلاثة: المقدمة (وهي أصلاً الجزء الأول من كتاب التاريخ) والتاريخ وهو الذي أصبح اسمه بعد إتمامه «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». أما الأثر الأدبي الثالث الهام لابن خلدون فهو «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا».

والتعريف هو ترجمة ذاتية وضعها ابن خلدون لتعريف الناس بحياته وأعماله وما مر به. وهي في مقدمة التراجم الذاتية التي انتهت إلينا من أيام السلف الصالح. وابن خلدون فيها صريح لا يداور ولا يحاور. فيها أخبار شيوخه وأخبار تنقله وأعماله وفيها، هنا وهناك، لمحات خاطفة لشخصيته بقلمه. والشيء الوحيد الذي نفتقده فيها هو هذه النواحي الخاصة والشخصية والعائلية التي كنا نحب لو أن المؤلف أعارها شيئا من العناية.

والقسم التاريخي من كتاب العبر يتناول المؤلف في نصفه الأول تاريخ الدول العربية والاسلامية الشرقية مع المقدمات اللازمة، بينما يخص جزأه الثاني بالحديث عن دول البربر. وهنا فضل ابن خلدون المؤرخ، إذ لولا ما وضعه لجهلنا الكثير الكثير عن دول المغرب.

أما المقدمة فهي كتاب وضع فيه ابن خلدون أساس علم جديد عليه هو «علم الاجتماع».

والمقدمة تشمل على ديباجة الكتاب أو خطبته وقد عرض فيها ابن خلدون لما وضعه المؤرخون قبله وما تعرضوا له من النقص في البحث والتمحيص، وما ارتكبوه من أخطاء وسبب ذلك بشكل اجمالي.

يلي هذه الديباجة ستة أقسام رئيسية هي: (١) في العمران البشري على الجملة؛ (٢) في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل؛ (٣) في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية؛ (٤) في البلدان والأمصار وسائر العمران؛ (٥) في المعاش ووجوه الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله؛ (٦) في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال.

فالمقدمة، عندما ينظر إليها نظرة اجمالية فاحصة، تبدو وكأنها أتم تنظيم فكري للعوالم الانسانية عرفة العرب. وقد وصفها ف. روزنتال، الذي نقلها إلى الانكليزية مؤخرا، بأنها مرتبة ترتيبا منطقيا وأنها تلتزم الصرامة المتناهية في

الموضوع من أولها إلى آخرها. تبدأ المقدمة بدرس البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الانسان وتأثيرها في حياته. ثم تتناول الانسان في منظماته المختلفة، بدوية كانت أم حضرية، وقيمة الزعامة أو القيادة في هذه الأمور. وتعرض بعد ذلك للدولة بأشكالها المختلفة، والحياة الاقتصادية وما يعتمل فيها وما تتأثر به من أمور وعوامل. وكل هذا يتناوله ابن خلدون في مقدمته في اطار من الفكر المنظم والمنطق الآخذ بعضه بأسباب البعض الآخر.

— ٧ —

في هذه المقدمة وضع ابن خلدون أسس علم الاجتماع وأسلوب البحث فيه، وهو الذي سماه العمران البشري. فقد كان يرى أن الانسان هو أصل العمران، وأنه، في تكوينه للعمران وقبوله للنظم المختلفة وتطور الظواهر الاجتماعية، إنما يعتمد على البيئة. وأن الأمور الربانية تؤثر في الفرد، أما المجتمع فيخضع في تطوره إلى قوانين عامة طبيعية تفعل فعلها في كل مكان وزمان. وحري بالذكر أن النظريات التي استنتجها ابن خلدون كانت مبنية على المشاهدة والعيان وقراءة التاريخ والعمل السياسي بين الحضر والبدو، وأنها اقتصرت على الشعوب الاسلامية في الدرجة الأولى.

والنقاط الأساسية التي انطلق منها ابن خلدون في سبيل وضع علمه الجديد أجملها الأستاذ شارل عيساوي في الأمور التالية:

١ — إن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة بحيث تسير الأحداث الاجتماعية في طريق سوي ونظم محددة المناهج والنتائج.

٢ — إن هذه القوانين تفعل فعلها في الجماعات ولا يمكن أن تتأثر بالأفراد. فالمصلح الذي يحاول إحياء دولة مهترئة لن تنجح محاولته لأن جهوده تطغى عليها قوى اجتماعية لا سبيل إلى مقاومتها.

٣ — إن مثل هذه القوانين لا سبيل إلى الكشف عنها إلا بجمع الحقائق الأساسية الكثيرة والكشف عن النتائج التي ترتبت عليها. وسبيل الحصول على هذه الحقائق هو استقراء الماضي وملاحظة المجتمعات ومحاولة سبر أغوارها. وهنا يتوجب على الباحث الاطلاع على القضايا النفسية والبيولوجية والاقتصادية وما إلى ذلك.

٤ — ان القوانين الاجتماعية تفعل فعلها في المجتمعات التي قد يفصلها عن بعضها البعض الزمان أو المكان.

٥ — ان المجتمعات ليست جامدة، أي أن الظواهر الاجتماعية تتبدل وتتطور.

٦ — ان هذه القوانين هي اجتماعية وانها ليست انعكاسات لاندفاعات بيولوجية أو عوامل طبيعية. فالصناعة والثروة وما إلى ذلك لها الأثر الأول في تطوير المظاهر الاجتماعية وتبديلها.

ويرى ابن خلدون أن العصبية هي الرابط الأقوى في حياة المجتمع. وفي ذلك يقول:

«أعلم ان كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم، مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين. فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام. والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة. والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لأهلها. فإذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة. فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه، لما قلناه من سر الغلب. لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون، والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر، فلابد من غلبة أحدها وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية. ومنه تعين استمرار



□ جامع الأزهر حيث تلقى ابن خلدون علومه.

الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه.
«وذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه. فلابد في الرياسة على القوم أن تكون عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع. والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب، إنما هو ملصق لزيق، وغاية التعصب له بالولاء والحلف، وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة، وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسي عهده الأول من الالتصاق، ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم، فكيف له الرياسة قبل الالتحام أو لأحد من سلفه. والرياسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية. فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ، فكيف تنوقلت عنه، وهو على حال الالتصاق؟ والرياسة لابد وأن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية. وقد يتشوف كثير من الرؤساء

على القبائل والعصائب إلى أنساب يلهجون بها، أما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم، أو ذكر كيف اتفق، فينزعون إلى ذلك النسب، ويتورطون بالدعوى في شعوبه، ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم. وهذا كثير في الناس لهذا العهد».

فاذا قام المجتمع والدولة التي تلزمه نشأ العمران بكل ما فيه من عوامل النمو. فهو يرى أن الدول أقدم من المدن والامصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك. وفي ذلك يقول:

«وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه. وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل واجرام عظيمة وبناء كبيرة. وهي موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون. وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى، حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً، بل لابد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك، أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلابد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك»».

ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها، فعمر الدولة حينئذ عمر لها. فان كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت، وان كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد ويفسح، إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها.

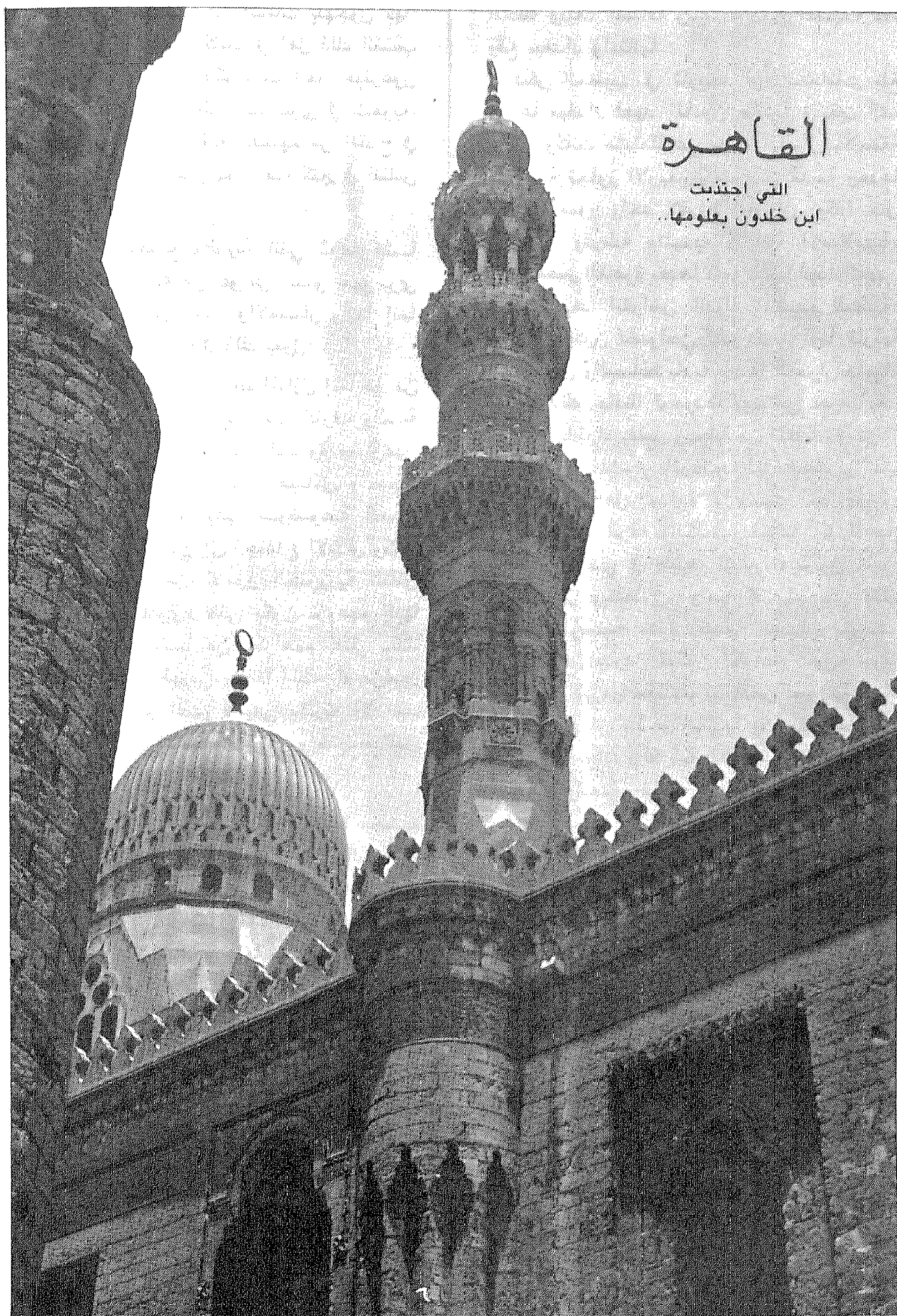
ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لافراط العمران. وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الاسلامية، وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد.

وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة: فاما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائما، فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب، وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال، لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب، تدعو إلى لدعة والسكون الذي في طبيعة البشر، فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون. وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها، فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها، فيزول حفظها، ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا، إلى أن يبذعر ساكنها وتخرب، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب، وأمثالها فتفهمه. وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية، يتخذها قرارا وكرسيا يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها. فتحفظ تلك الدولة سياجها، وتتزايد مبانيها ومصانعها، بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها، وتستجد بعمرانها عمرا آخر، كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق».

— ٨ —

كان ابن خلدون عبقريا. فجمع خبرات الماضي عبر التاريخ وخبرات المجتمع المعاصر له خلال التجربة والعمل في السياسة وغيرها، ولاحظ ما اعتور المجتمعات التي عرفها، وخرج بعلمه الجديد. وكان الرجل يعرف انه يكتب في علم جديد.

وقد عرف معاصروه والذين جاءوا بعده مباشرة فضله. لكن المقدمة لم تلبث أن أصبحت شيئا في عداد الماضي. وكان أول من أفاد منها في القرنين العاشر والحادي عشر/ السادس عشر والسابع عشر رجال الحكم والسياسة من الأتراك العثمانيين، أمثال ويصي أفندي وطاش كبرزاده


القاهرة
التي اجتذبت
ابن خلدون بعلومها..

وحاجي خليفة ونعيما. وقد نقل بيري زاده القسم الأكبر من المقدمة إلى اللغة التركية في سنة ١١٤٥/١٧٣٠.

وفي القرن الماضي والقرن الحالي نقلت المقدمة إلى اللغات الفرنسية والايطالية والالمانية والانكليزية أما كلا أو أجزاء. وقد بلغت الدراسات التي كتبت عن ابن خلدون ومقدمته المئات.

وقد ظهر في أوروبة عدد من العلماء الذين تناولوا نواحي مختلفة من شؤون المجتمع درسا وبحثا مثل ماكيافللي وبودان وفيكو وكوندورسيه وأوغست كونت. وهذا الأخير يعتبر واضع علم الاجتماع الحديث.

ولكن مما يؤسف له أن هؤلاء الغربيين لم يكونوا قد عرفوا بما قام به السابق لهم جميعا أي ابن خلدون. ولو أنهم عرفوا ذلك وبدأوا من حيث انتهى هو لكانوا وفروا جهودا كبيرة.

فابن خلدون هو واضع أسس علم الاجتماع لكنه لم يكن أبا لعلم الاجتماع الحديث مباشرة.

ولعله من المفيد أن ننقل هنا رأي الدكتور علي عبد الواحد وافي. فقد عقد فصلا للمقابلة بين أوغست كونت وابن خلدون ختمه بقوله:

«هذا إلى أن أوجيست كونت نفسه قد اعترف بأن أساليب التفكير وفهم الأشياء في عصره كان يتنافر بعضها مع بعض كل التنافر، وان هذا قد سبب اضطرابا وتنافرا بين مظاهر الحياة الاجتماعية. فكيف يتفق هذا مع ما قرره في هذا القانون من أن التضامن أو الانسجام هو القاعدة في مظاهر الاجتماع الانساني.

«ومن هذا يظهر أن أوجيست كونت قد جانبه التوفيق في جميع ما انتهت إليه دراسته، سواء في ذلك ما انتهت إليه دراساته في الديناميك الاجتماعي وهو قانون الحالات الثلاث وما انتهت إليه دراساته في الستاتيك الاجتماعي وهو قانون التضامن.

«أما الأسباب التي أدت إلى إخفاقه هذا فيرجع أهمها إلى أنه لم يستنطق الحوادث ولم يلاحظ الوقائع والتاريخ ملاحظة أمينة صادقة، وإنما استوحى مبادئه الفلسفية وما كان يدين به من آراء في شؤون الكون والتفكير. وقد تصيد لهذه الآراء ولهذه المبادىء ما يؤيدها من الحوادث، وحال هواء بينه وبين النظر إلى مئات الشواهد الواقعية التي تدل على بطلانها.

«وأما ابن خلدون فانه لم يحاول كما فعل أوجيست كونت أن يستخلص قانونا عاما لناحية التطور ولا لناحية الاستقرار. وإنما درس كل طائفة من طوائف الظواهر الاجتماعية على حدتها واستخلص من دراسته لها ما هدته إليه ملاحظاته من أفكار وقوانين كما سبق بيان ذلك.

«وجميع قوانين ابن خلدون وأفكاره مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الأمم التي شاهدها أو عرف تاريخها، بدون أن يستوحي مبدأ فلسفيا أو يتأثر برأي مبيت من قبل كما فعل أوجيست كونت.

«ومن ثم كان منهجه أدنى إلى المنهج العلمي من منهج أوجيست كونت، وكانت قوانينه أقوى أساسا وأقرب إلى طبائع الأمور وإلى الواقع من القوانين الخيالية التي انتهى إليها أوجيست كونت.

«غير أن معظم القوانين والأفكار التي انتهى إليها ابن خلدون لا تكاد تصدق إلا على الأمم التي لاحظها وهي شعوب العرب والبربر والشعوب التي تشبهها في التكوين وشؤون الاجتماع. بل لا تصدق على هذه الأمم نفسها إلا في مرحلة خاصة من مراحل تاريخها وهي المرحلة التي شاهدها أو انتهى إليها علمه.

«فالخطأ الذي وقع فيه ابن خلدون في هذا الصدد يرجع إلى نقص كبير في استقراء الظواهر، فهو لم يستقرىء الظواهر إلا عند أمم معينة وفي عصور خاصة، وانتهى من هذا الاستقراء الناقص كل النقص إلى أفكار وقوانين ظن أنها عامة تصدق في كل مجتمع وفي كل زمان.

«ولكن خطأه هذا ليس شيئا مذكورا بجانب الأخطاء التي وقع فيها أوجيست كونت. فانحراف ابن خلدون عن المنهج السليم في استنباط القوانين كان انحرافا شكليا يسيرا يمكن علاجه بتوسيع نطاق الاستقراء، على حين أن أجيست كونت قد انحرف في ذلك عن المنهج السليم انحرافا جوهريا كبيرا لا سبيل إلى إصلاحه إلا بهدم جميع ما بناه وأنشأه على أسس أخرى».

●

فردريك الأكبر وطوال الأجسام

عرف عن فردريك الأكبر ملك بروسيا في أوائل القرن الثامن عشر أنه كان يفضل استخدام جنود طوال القامة ذوي بنية قوية تميل الى الضخامة. وخطر بباله ذات يوم أن يؤلف فرقة منهم تحرس قلعته وتحرس شخصه. فأمر بتأليف الفرقة ولكنه اشترط أن يكون أفرادها ممن يعرفون اللغة الألمانية.

ووجد رجاله صعوبة في تأليف الفرقة بسبب شرط اللغة. ولهذا قرروا التساهل في الأمر واكتفوا بتعليم الجند من الألمانية ما يكفي للرد على الأسئلة التي توجه إليهم. وكانوا قد لاحظوا أن الملك يطوف بالحرس في الليل ويطرح عليهم ثلاثة أسئلة واحداً بعد الآخر ووفق ترتيب معين وهي: متى دخلت الفرقة؟ كم عمرك؟ هل أنت راض عن المسكن والغذاء. فدربوا الحرس على الاجابة عنها بذات الترتيب. وكان الغرض بالطبع ايهام الملك انهم يعرفون الألمانية.

وحدث ذات ليلة أن أخذ الملك يطوف ببعض الحرس



□ فريدريك الثاني الكبير

ووقف عند أحدهم وبدأ يوجه الأسئلة ولكن وفق ترتيب آخر. وبدأ كما يلي:

ــ كم عمرك؟ قال الحارس:

ــ ثلاثة أشهر. وفوجىء فردريك فقال:

ــ ومتى دخلت فرقة الحرس؟ قال الحارس:

ــ منذ ثلاثين سنة. فقال فردريك بغضب

ــ إما أنا مجنون أو أنت، فقال الحارس:

ــ كلاهما.

السفير وملك اسبرطة

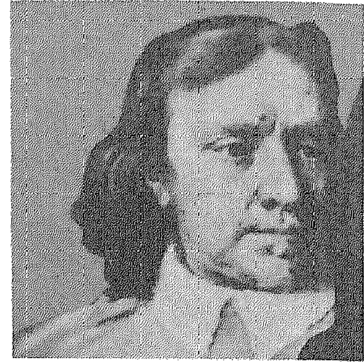
أوفدت مدينة برينثوس الاغريقية (اليونانية القديمة) أحد سفرائها إلى ملك اسبرطة في مهمة خاصة. وتكلم السفير وأطال الى درجة الاملال. وأخيرا قال للملك:

ــ والآن ماذا أقول لأهالي برينثوس يا مولاي؟ قال الملك:

ــ قل لهم بأنك تكلمت وتكلمت، ولكنني لذت بالصمت، ولم أفه بكلمة واحدة.

اسلوب في الدكتاتورية

حدث في القرن السادس عشر أن استولى توماس كرومويل (١٥٩٩ ــ ١٦٥٨) بانجلترا على السلطة، وأعلن نفسه حامياً للكومنولث، وحكم حكما دكتاتوريا بالتعاون مع الجيش. على أنه أثار معارضة قوية لتسلطه وبخاصة بين رجال الكنيسة البرسبتارية (المشيخية). وذات يوم قام أحد كبار رجال هذه الكنيسة بمصارحة كرومويل بموقفه المعارض له، ووصف استيلاءه على السلطة بأنه إجراء غير شرعي وغير عملي. فقال له



□ كرومويل

كرومويل:

ــ ولماذا تقول بأنه غير عملي؟ فأجاب رجل الدين:

ــ لأنه ضد إرادة الشعب.

قال كرومويل:

ــ وماذا يحدث نتيجة لذلك؟

قال رجل الدين:

ــ سيكون تسعة من كل عشرة منهم ضدك. فقال كرومويل:

ــ حسنا يا سيدي. لكن ما قولك إذا استطعت أن أجرد التسعة من السلاح وأن أسلح العاشر؟ ألا تعتقد بأنني سوف أنجح في التغلب على المعارضة؟

اقصر رسالة في التاريخ

لعل أقصر رسالة في التاريخ هي رسالة بعث بها الاسبرطيون إلى فليب المقدوني. وقصتها كما يلي.

كان فليب المقدوني قد بدأ بالتوسع وضم المدن اليونانية واحدة بعد الأخرى. وأذعن جميعها له ما عدا اسبرطة. وغضب فليب لا لعدم ضمها ولكن لرفضها الاذعان له. فبعث لهم برسالة يهددهم فيها. ومما جاء فيها قوله:

ــ أيها الاسبرطيون. الأفضل لكم أن تبادروا إلى الرضوخ لسلطاني. لأنني **إذا** زحفت بجيشي عليكم فانني سوف أدمر بلادكم وأقتل رجالكم.

وكان الاسبرطيون معروفين بشجاعتهم وعنادهم. فأجابوه برسالة تشتمل على كلمة واحدة جاءت في انذاره لهم وهي كلمة «إذا» فجاءت هذه الرسالة أقصر رسالة عرفها التاريخ. ومن الطريف أن فليب ترك اسبرطة وشأنها.



الانتماء الاجتماعي والمسألة الحضارية في فكر جبران

د. وجيه كوثراني



عاش جبران أقل من نصف قرن (من ١٨٨٣ إلى ١٩٣١): سنوات قليلة في مرحلة تاريخية لا تزال تعيش فينا في قلق البحث عن التاريخ الضائع، ونعيشها في البحث الحثيث عن صورتنا في الذاكرة التاريخية المنسية... تعيش فينا سؤال انتماء، ونعيشها ازمة اختيار لموقع في ثقافة ما...

ذلك أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين يشهد المشرق العربي تشكلا تاريخيا لمرحلة لم تنجز بعد ولم تستقر على ثوابت.

فلا الدولة التي تم عنها البحث في الحرب العالمية الأولى التي عاصرها جبران شابا تحققت وفق الارادات الداخلية لأبناء الوطن. ولا الاستقلال الذي سعت نحوه القوى البريئة رأى النور في مشروع مستقل، ولا النهضة التي انتظم فيها جبران وكان أحد رموزها المتألقة تمكنت من التجذر في مشروع حضاري أصيل وجديد وانساني.

ذلك أن هوة كبرى بعدت بين الحلم والواقع.. الحلم الذي ينبع من ضمير الانسان المقهور، والواقع الذي يصوغه عقل الطواغيت الكبار.

وكأن جبران عرف بحدس صوفي وبشفافية المنجذب دائما إلى المثال الأعلى عمق هذه الهوة التي تفصل الحلم عن الواقع، ففضل أن يخلق لنفسه في حينه عالما خاصا عبر اللون والشكل والقصيدة والكلمة والقصة والخاطرة.. ومع هذا، لم يكن نتاج جبران «طوبى»، هروب إلى الأمام أو إلى الوراء..



□ جبران خليل جبران بكاميرا موريتا

فجبران ينفرد عن العديد من مفكري النهضة في أنه لم يندرج في مدرسة تفسير الواقع أو ادعاء تغييره في عمل سياسي مباشر أو تبرير ما يجري، أكان هذا الذي يجري «مأساة» أو «هزيمة» أو «انتصارا». بل يمكنني أن أقول: إن نتاجه كان يصدر عن قلبين «قلب يتألم وقلب يتأمل» مستعيرا هذه الصورة من قولته هو:

«للرجل العظيم قلبان: «قلب يتألم وقلب يتأمل»».

فجبران عاش الحلم والواقع معا. عاش بداية عذوبة الحلم وبداية مأساوية الواقع. وكان يشعر أن ثمة تفارقا يحصل بين الوضعيتين وبأن هوة تحفر بينهما... لكن جبران لا يغادر معايشة الوضعيتين. فهو لا يهرب من الواقع ليعيش طوبى الفيلسوف، طوبى مدنيته الفاضلة ولا يغادر الحلم ليغرق في اللهاث وراء فهم الحدث كالمنظر أو المحلل السياسي.

تلك هي مأساة الازدواجية في المعاناة: معاناة الألم والأمل معا، وهي معاناة يمارسها جبران من موقع الحب الكبير.

وهذا الحب على لسان جبران:

«هو أن تذوب وتكون كجدول متدفق يشنف آذان الليل بأنغامه.

«هو أن تخبر الآلام في العطف المتناهي.

«هو أن يجرحك إدراكك الحقيقي للمحبة، في حبة قلبك، وأن تنزف دماؤك وأنت راض مغتبط.

«أن تنهض عند الفجر بقلب مجنح، خفوق، فتؤدي واجب الشكر ملتمسا يوم محبة آخر. أن تستريح عند الظهيرة وتناجي نفسك بوجد المحبة.

«أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكرا: فتنام حينئذ والصلاة لأجل من أحببت تتردد في قلبك وأنشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك.».

من خلال هذا الحب يمارس جبران التزاما حيال كل القضايا السياسية والاجتماعية المعاشة في مجتمع ساءت فيه علاقات السلطة، فتحولت إلى عسف واستبداد. وساءت فيه علاقات التعامل بين الأفراد داخل الجماعة فساءت الفردية والأنانية والاستغلال، وساءت فيه قيم التعليم وأساليبه ومدارسه وتوجهاته فتحولت إلى نزعات مدمرة لوحدة المجتمع وتوازنه وهويته الثقافية والحضارية، وساءت أيضا في التطبيق المشاريع البديلة لمرحلة الانتقال إلى الدولة الحديثة، فتحولت المشاريع المنشودة إلى مشاريع سيطرة غربية وتجزئة اقليمية وتقاتل مذاهب وطوائف وتجارة بالدين...

كل هذا يستوعبه جبران، وبدل أن يحلل ذلك بعقلانية المؤرخ أو عالم الاجتماع أو المفكر السياسي. يطلق صيحات معبرة:

— فهو معا وفي نفس الوقت مع عدالة السلطة وثورة الفقراء: «أقرب الناس إلى قلبي ملك لا مملكة وفقير لا يعرف أن يتسول».

— أنه أيضا ضد التسلط والاستكانة معا: «إنما الرجل العظيم ذلك الذي لا يسود ولا يساد».

— وهو ضد تقديس السلطة ضد الموقف الذي أرسته الهجلية في الفكر السياسي الأوروبي في مفهوم الدولة، يقول: «الحكومة اتفاق بيني وبينك. وأنت وأنا في الغالب على ضلال».

وفي مكان آخر: «الأنانية يا أخي أوجدت التنافس الأعمى، والتنافس ولد العصبية والعصبية وضعت السلطة وكانت هذه داعيا للمنازعات والاستعباد.

«النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة على الجهالة والظلم، ولكنها تنكر تلك السلطة التي تستل من المعارف قواضب وبواتر لتعميم الجهالة والمظالم. تلك السلطة التي هدمت بابل وقوضت أركان أورشليم ودكت مباني رومية.. السلطة الحقيقية هي الحكمة المحافظة على الشريعة الطبيعية العامة العادلة. فأين عدالة السلطة إذا قتلت القاتل وسجنت الناهب ثم زحفت بذاتها إلى بلاد مجاورة وقتلت الألوف ونهبت الربوات..».

هذه الصيحات التي يطلقها جبران في كلماته، تصدر كما قلت عن قلب متألم ولكن أيضا عن بصيرة نافذة في الواقع. أنه لا يفارق الواقع الذي آلت إليه البلاد بعد الحرب الأولى فهو يتابعه من مهجره، ويتطلع إليه فلا يحاول أن يجمل المعطيات الجديدة فيه أو يبررها في صيغ «الأخذ بالمدنية الجديدة» أو مظاهر الاقتباس الحضاري عن الغرب أو الخضوع لدولة الحضارة أو المدنية ريثما يتسنى لنا اللحاق بركب المدنية الحديثة.. وهي صيغ امتلأت بها أدبيات النهضة الفكرية في مرحلة ما بين الحربين...

إن جبران، وبلا مقدمات سياسة نظرية يبصر أن هذه الصيغ ما هي إلا تبريرات لواقعات يسميها بأسمائها: استهلاك الذات عبر استهلاك سلعة الغرب واستعباد الذات عبر الخضوع للأجنبي.. والشعوذة الفكرية عبر تقليد الآخر والتفتيت القومي عبر الانتفاخ القومي للأجزاء وتجزؤ الذات إلى أمم وطوائف.

يقول في حديثه النبي:

«يا أصدقائي ويا رفاق طريقي، ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين.

«ويل لأمة تلبس مما لا تنسج، وتأكل مما لا تنتج وتشرب مما لا تعصر.

«ويل لأمة تحسب المستبد بطلا. وترى الفاتح المذل رحيما.

«ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا مشت في جنازة ولا تفخر إلا بالخراب ولا تثور إلا وعنقها بين السيف والنطع.

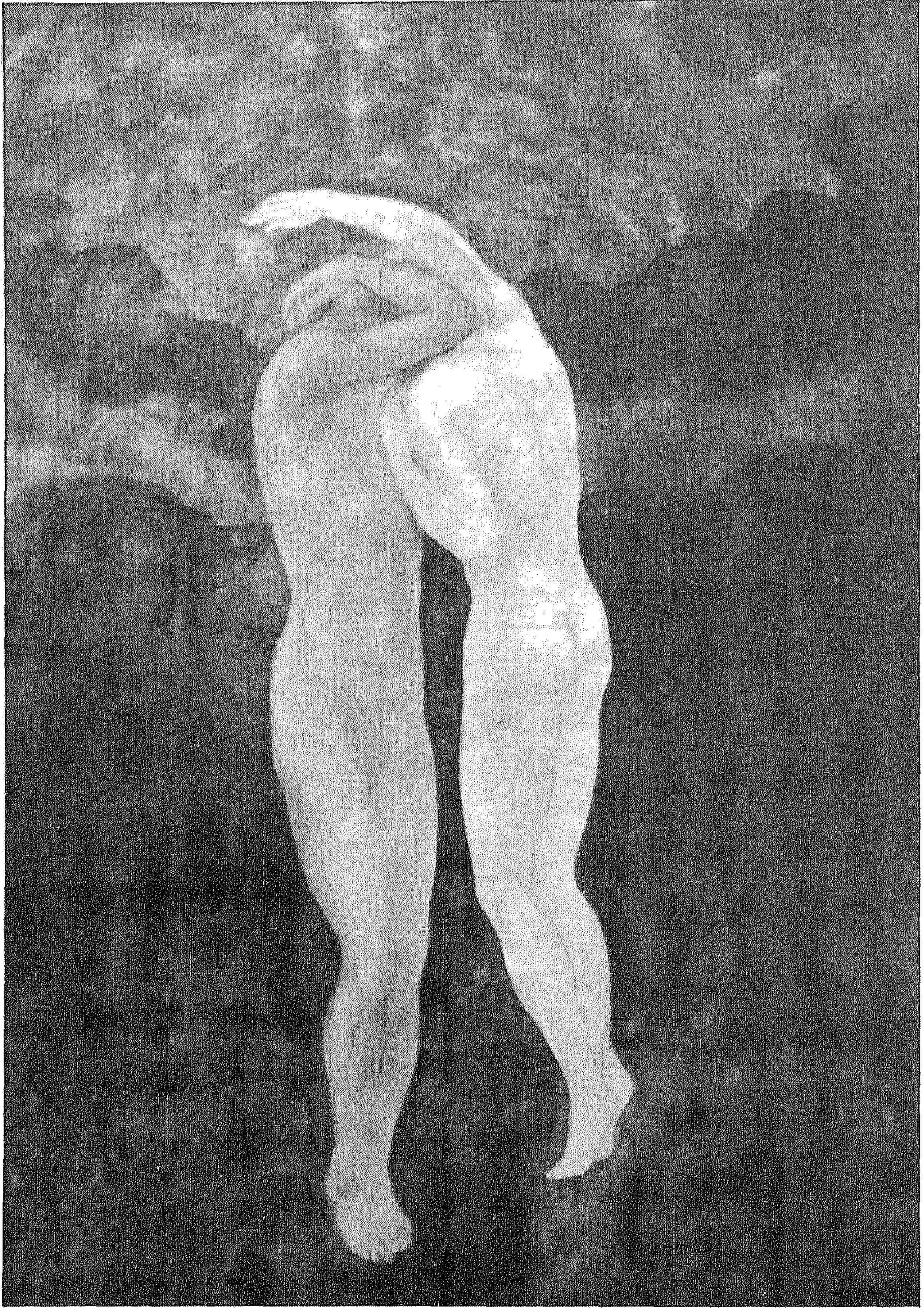
«ويل لأمة سائسها ثعلب وفيلسوفها مشعوذ وفنها فن الترقيع والتقليد.

«ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطبيل وتودعه بالصفير لتستقبل آخر بالتطبيل والتزمير

«ويل لأمة حكماؤها خرس من وقر السنين ورجالها الأشداء لا يزالون في أقمطة السرير.

«ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء وكل جزء يحسب نفسه فيها أمة».

ومع أن جبران كان مشبعا بالحضارة الغربية، إلا أنه لم يكن مستهلكاً بها أو مستلبا بجاذبيتها.. فهو يعرف حدودها، ويعرف التمايز، بين ما هو علم وانساني وبين ما هو ثقافة



□ المحبة.

توسعية وسياسة استعمارية.. وحيز التمييز خيط دقيق لا يدركه إلا من انطلق من قاعدة العفوية والفطرة والطبيعة في السلوك الانساني. وهي القيم الأصيلة في الحضارة الشرقية التي أنتمي إليها جبران انتماء مركزيا.

إن دوائر الانتماء عند جبران تتسع من مسقط الرأس إلى الدائرة العالمية. وذلك ضمن حلقات ربط نجدها تبدأ عند جبران من لبنان وتتسع تدريجيا لتصبح دائرة مشرقية، سورية ثم دائرة إسلامية ثم دائرة شرقية. وفي سياق هذا التدرج يرى جبران وهو الانسان الذي نال قسطا كبيرا من ثقافة الغرب، ضرورة الارتباط الأصيل بالشرق، مع امكانية اللقاء الانساني عبر الهضم والاستيعاب.

يقول في زمن الحرب الأولى:

«أنا لبناني ولي فخر بذلك.. ولست عثمانيا ولي فخر بذلك أيضا.. ولي أمة أتباهى بمآسيها، وليس لي دولة انتمي إليها وأحتمي بها، وأنا مسيحي ولي فخر بذلك ولكنني أهوى النبي العربي وأكبر اسمه وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله.

أنا شرقي ولي فخر بذلك، ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظل شرقي الأخلاق، سوري الأمال، لبناني العواطف.

أنا شرقي ومهما عجبت برقي الغربيين ومعارفهم يبقى الشرق موطنا لأحلامي ومسرحا لاماني وآمالي».

هذه الوطنية المنفتحة عند جبران ترتكز إلى أصالة شرقية تبرز رموزها عبر التماهي مع أنبياء الشرق والتمثل بحكمة الشرق. وهي، من هذه الزاوية تكتسب إنسانيتها وشموليتها. فهي ليست إنسانية بمعنى الكوسموبولتيه التوسعية أو الأخوية الماسونية أو ليبرالية العالم الرأسمالي، أو أممية العالم الاشتراكي، فهي لا تحاول أن تطمس سمات الأقوام وخصائصها الذاتية والمحلية. وهي أيضاً ومن جهة أخرى ليست وطنية اقليمية شوفينية بالمعنى الذي اكتسبته القوميات التوسعية في عهده. لنسمع صوته في صوت الشاعر يقول في «دمعة وابتسامة»:

«أحن إلى بلادي لجمالها وأحب سكان بلادي لتعاستهم. ولكن إذا ما هب قومي مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله ورملوا نساءه وسقوا أرضه بدماء بنيه وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهت إذ ذاك بلادي وسكان بلادي.

«اتشبث بذكر مسقط رأسي وأشتاق إلى بيت ربيت فيه، ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت وقوتا من سكانه ومنع مطرودا استبدلت تشبيبي بالرثاء وشوقي بالسلو وقلت بذاتي: ان البيت الذي يضن بالخبز على محتاجه، وبالفراش على طالبه فهو أحق البيوت بالهدم والخراب.

«أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي، وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني. وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع الانسانية وروح الألوهية على الأرض».

إذن أن البوصلة التي تعين موقف جبران من القومية أو الوطنية هي جاذبية نصرة المستضعفين. فحدود وطنه تتسع كما قلنا من دائرة مسقط الرأس إلى حدود الانسانية المستضعفة. وهي في داخل وطنه حدود قائمة بين العدل والظلم، بين الحق والباطل بين الجوهري والعرضي: بين لبنانه ولبنان الآخرين...

ألا تعكس كلمته أو أغنيته الوجدانية في لبنان هذا الهم الانساني الكبير «لكم لبنانكم ولي لبناني». «لبنانكم مرافىء وبريد وتجارة، أما لبناني ففكرة بعيدة وعاطفة مستقلة وكلمة علوية تهمسها الأرض في أذن الفضاء».

...

...لكم لبنانكم وأبناؤه ولي لبناني وأبناؤه.

ويسأل جبران: ومن هم يا ترى أبناء لبنانكم؟

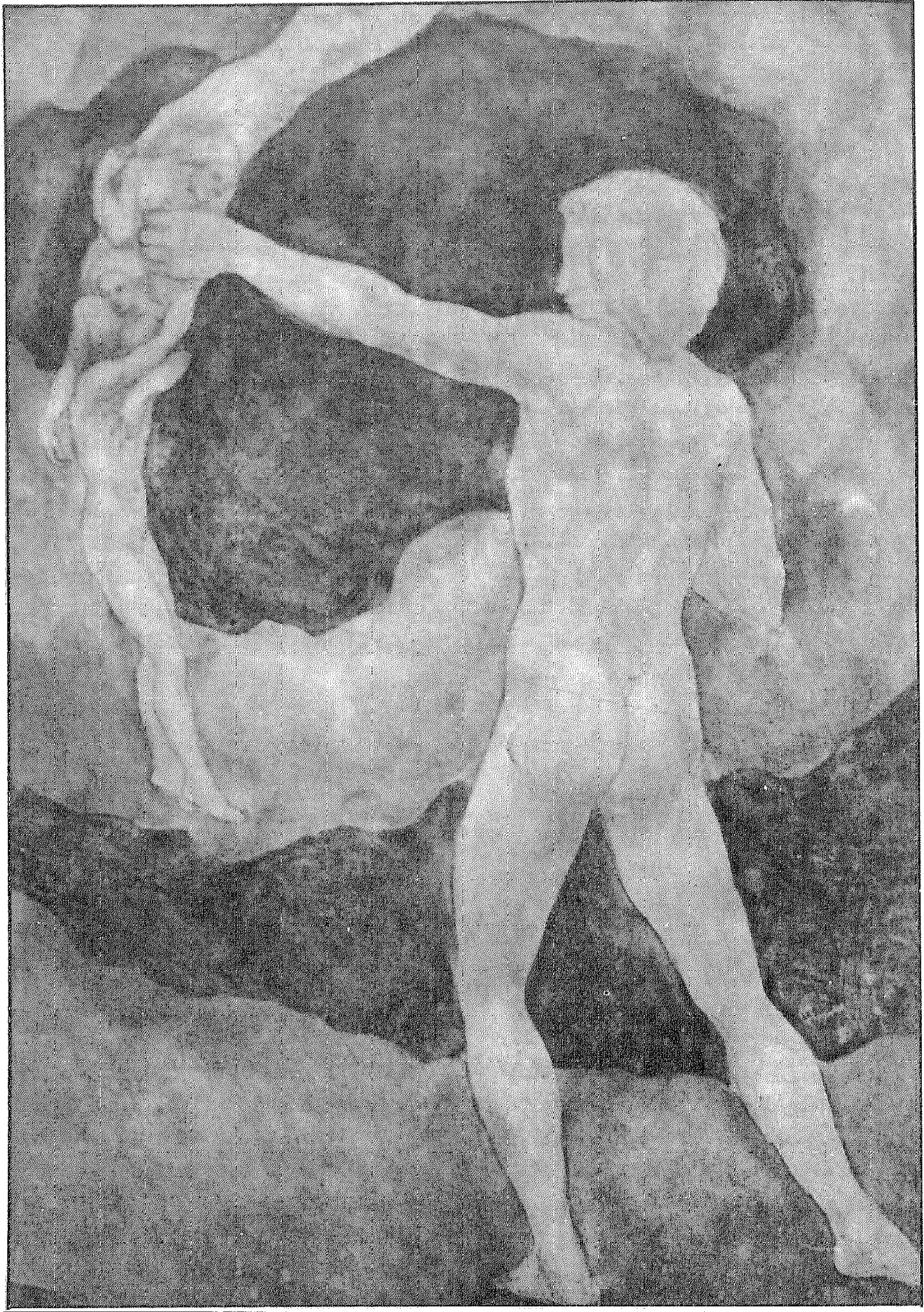
ويجيب: «هم الذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيين.

«هم الذين استيقظت عقولهم في حضن طامع...

«وهم تلك القضبان اللينة التي تميل إلى اليمين وإلى اليسار...».

وأما أبناء لبنان جبران:

فـ «هم الفلاحون الذين يحولون الوعر إلى حدائق وبساتين.



□ الأولاد.

«هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من واد إلى واد فتنمو وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء وصوفها رداء.

«هم الكرامون الذين يعصرون العنب خمرا ويعقدون الخمر دبسا.

«هم الأدباء الذين يربون أنصاب التوت والأمهات اللواتي يغزلن الحرير.

«هم الرجال الذين يحصدون الزرع والزوجات اللواتي يجمعن الأغمار.

«هم البناؤون والفخارون والحائكون وصانعو الأجراس والنواقيس.

«هم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنى والزجل»...

«وهم الذين يولدون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم...».

وهذا التمييز عند جبران يبقى قائما على الأصل والمضمون لا على الشكل والمظهر. فالاستقلال الذي يدعو إليه عن الغرب هو استقلال في المضمون، في الارادة، في الروح وفي الابداع والخلق...

لنسمعه يحدثنا عن ذلك الأديب السوري الذي رفض خلع طربوشه أثناء جلوسه إلى مائدة الطعام على باخرة فرنسيةفكتب مقالا يحتج فيه على ربان السفينة.

يقول: «أجل يعجبني أن أرى الشرقي متمسكا ببعض مزاعمه قابضاً ولو على ظل من ظلال عاداته القومية.

«ولكن اعجابي هذا لا ولن يمحو ما وراءه من الحقائق الخشنة المستتبة المتشبثة بذاتية الشرق ومنازع الشرق ومزاعم الشرق.

«لو فكر ذلك الأديبٌ الذي استصعب خلع طربوشه في الباخرة الافرنجية بأن ذلك الطربوش الشريف قد صنع في معمل افرنجي لهان عليه خلعه في أي مكان وبأية باخرة افرنجية.

لو فكر أديبنا بأن الاستقلال الشخصي في الأمور الصغيرة كان وسيكون رهن «الاستقلال الصناعي وهما كبيران لخلع طربوشه ممتثلا صامتا.

«لو فكر صاحبنا بأن الأمة المستعبدة بروحها وعقليتها لا تستطيع أن تكون حرة بملابسها وعاداتها لو فكر بذلك لما كتب مقاله معترضا.

«مصاب أديبنا الشجاع أنه قد اعترض على النتائج ولم يحفل بالأسباب فتناولته الأعراض قبل أن يستميله الجوهر، وهذا شأن أكثر الشرقيين الذين يأبون أن يكونوا شرقيين إلا بتوافه الأمور وصغائرها مع أنهم يفاخرون بما اقتبسوه من الغربيين مما ليس بتافه أو صغير».

وسبب هذا الضياع في صياغة موقف مستقل عن الغرب في رأي جبران هو تبعية الأقطار العربية إلى المحاور السياسية الغربية، مما يؤدي لا إلى الاستتباع فحسب بل إلى التجزئة والتفتت. يقول: «وأنى للأقطار العربية التضامن وقلب كل قطر يخفق ولكن بصدر عاصمة من عواصم الغرب؟ وكيف تستطيع الألفة والتفاوت وكل منها يستمد ميوله السياسية والعمرانية والاقتصادية من زاوية بعيدة عن زوايا الغرب؟

ويضيف متهكما على عبثية طرح التضامن السياسي في ظل التبعية الاقتصادية المطلقة للغرب: «ألا تعلمون أن الغربيين يسخرون بكم عندما تظهرون رغبتكم في التضامن السياسي والاقتصادي مع أنكم تطلبون إليهم أن يبدلوا المواد الخام التي تثمرها أرضكم بالابرة التي تخيطون بها أثواب أطفالكم والمسمار الذي تدقونه في نعوش أمواتكم».

وبعيداً عن المناورات السياسية والتكتلات ولعبة المحاور والتكتيكات اليومية لممارسات الدولة يقترح جبران صيغة ثقافية حضارية لتحقيق التضامن والوحدة بين الشعوب العربية وهي الصيغة التي لا يزال يشكل غيابها مأزقا معيقا للتقدم والاستقلال الفعليين.

يقول: «أما الصورة الايجابية لتضامن الأقطار العربية فهي تنحصر في أمرين أساسيين: «أولهما تثقيف الناشئة في مدارس وطنية بحتة وتلقينها العلوم والفنون باللغة العربية فينتج عن ذلك الألفة المعنوية والاستقلال النفسي.

وثانيهما استثمار الأرض واستخراج خيراتها وتحويل تلك الخيرات واسطة الصناعة الشرقية إلى ما يحتاجه القوم من مأكل شرقي ومأوى شرقي، فينتج عن ذلك التضامن الاقتصادي ثم الاستقلال السياسي».

ويطرح جبران هنا مسألتين هما من أهم



◻ الألم

المسائل التي تواجهها الشعوب المستعمرة والبلدان النامية اليوم وهما مسألة الثقافة الوطنية من جهة والصناعة الوطنية والتحديث من جهة أخرى.

فالتعريب الذي يطرحه جبران والذي يثار الجدل حوله واسعاً في بعض البلدان، فيرى فيه البعض تجربة فاشلة ومعيقة للتقدم العلمي، ويرى فيه البعض الآخر خشبة الخلاص القومي — التعريب الذي يطرحه جبران يتخطى الشكل من حيث هو ترجمة واستغناء عن اللغة الأجنبية. أن جبران يدعو لتعريب العلم على قاعدة هضمه في وعاء حضاري هو: اللغة العربية وعلى قاعدة الابتكار والخلق والبحث يقول: «ان مستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن — أو غير الكائن — في مجموع الأمم التي تتكلم اللغة العربية».

هذا الموقف الذي يتضمن الدعوةُ إلى هضم المدنية الغربية والمشاركة في الابتكار الانساني في



□ الوداع.

وعائنا الحضاري الذي هو اللغة العربية يرتبط أيضا بموقفه من التحديث والتصنيع الوطني. ان ما تسميه جبران: «مأكلاً شرقيا ومأوى شرقيا» و «صناعة شرقية» يتواصل مع أحداث نظريات التنمية للعالم غير الصناعي، وهو موقف يدعو إلى ربط التصنيع بالثقافة المحلية، أي بالحاجات والأذواق وأنماط الحياة التي يعيشها الشعب دون الدخول في متاهات الاستهلاك السلعي الذي قدمته المجتمعات الغربية الاستهلاكية على مستوى الحاجات الوهمية في العالم.

وهنا يطل جبران على اشكالية حضارية لا تزال تشكل احدى النقاط الحارة في الصراع الحضاري والسياسي في الشرق العربي والاسلامي.

ففي استفتاء أجرته مجلة الهلال عام ١٩٢٣ حول موضوع نهضة الشرق العربي والموقف إزاء المدنية الغربية أجاب جبران على السؤال التالي: «هل ينبغي لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية وبأي قدر وعند أي حد يجب أن يقف هذا الاقتباس؟ أجاب: «في مذهبي أن السر في هذه المسألة ليس مما ينبغي أن يقتبسه الشرق أو لا يقتبسه من عناصر المدنية الغربية، بل السر كل السر هو ما يستطيع الشرق أن يفعله بتلك العناصر بعد أن يتناولها.

«قلت منذ ثلاثة أعوام أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه، ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي. أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول إلى كيانهم الشرقي بل يحولهم إلى شبه غربيين. وهي حالة أخشاها وأتبرم منها لأنها تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطورا كطفل بدون أضراس.

هذا الشعور العميق بالأزمة الحضارية التي يعانيها الشرق ينبع من المعاناة السليمة التي ترافق عملية خضوع المغلوب لحضارة الغالب، فالغرب أصبح في داخلنا بعد قرون السيطرة الطويلة والتوسع الرأسمالي الكثيف وهيمنة النماذج الحضارية الغربية في الفكر والمناهج والسلوك.

لذلك يصبح موقف جبران هو الأسلم بين موقفين: بين موقف مجذوب ومستلب بالغرب وبين موقف آخر لا يحاول صاحبه أن يرى ما في داخله من اختراق وتأثير فينطوي ويطوي رأسه كما تطوي النعامة رأسها في الرمل.

وجبران في هذا الموقف لا يفرط أبداً في الجانب الوطني. لا يفرط في حق المغلوب باسترداد حقه في الاستقلال. إنه يرفض أن يصبح التعليم الغربي وسيلة تدمير وتجزئة. واختلاف في بيئة مجتمعنا ومعول تهديم لوحدته، ويريد أن يكون استيعاب التعليم الغربي وسيلة بناء للذات واستنهاض للداخل وتواصل مع الأصيل فينا. ولذلك شروط لا تتحقق إلا بالاستقلال لنسمعه جيدا وهو يصف حالة التعليم في سوريا عام ١٩٢٠:

«في سوريا مثلا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون. ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا. أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلا وأماتنا لأنه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في حبل احدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها.

فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أميركية قد تحول بالطبع إلى معتمد أميركي، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيرا فرنسيا، والشاب الذي لبس قميصا من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا... إلى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء.

«وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي. فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانكليزية يريدون اميركا أو انكلترا وصية على بلادهم؟ والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أوفى إلى معارفهم وأقرب إلى مداركهم.

«وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي تتعلم على نفقتها دليلا على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجرا من جهة واحدة وتهدم جدارا من الجهة الأخرى، ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوما وتميتنا دهرا؟».

لذلك يرى جبران ضرورة أن نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا» أي بتعليم وطني باللغة العربية وعلى نفقة الأمة لأن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب فالموهوب مسير دائما والواهب مخير دائما».

ويمكن أن نضيف وفق منطق جبران: المغلوب لا يستطيع أن يختار ما هو نفع له إلا إذا نزع الغلبة عن كاهله. والغالب لا يختار إلا ما ينسجم مع منفعته. تلك العلاقة غير المتكافئة بين الطرفين هي جوهر المشكلة وأساس المأزق الحضاري الذي تعانيه الأمم المغلوبة، والسباق الذي يدعو له البعض على أرضية الغالب، سباق خاسر سلفا، خسرناه في سباق «نهضتنا» في مطلع القرن، ولا زلنا نجر ذيول الخسارة حتى اليوم. إن الدعوة إلى استيعاب الغرب أو هضمه على حد تعبير جبران، لا تستنتج الدخول في سباق على أرضه ووفق قوانين لعبته. وتأملات جبران، لا سيما تلك التي تحمل روحية الدعوة وحرارة الايمان في النبي» ويسوع بن الانسان تدعو إلى موقف تبصر في هذا الشأن. فهو على لسان عساف الملقب بخطيب صور يقارن بين خطاب خطباء روما وأثينا والاسكندرية، وبين خطاب يسوع. يقارن بين عقلانية يسوع وعقلانية أولئك... يقول: قد سمعت في حداثتي خطباء روما وأثينا والاسكندرية ولكن الناصري النذير كان يختلف كل الاختلاف عن جميعهم...».

«حصر أولئك همهم بترتيب الكلام بصورة تسحر الآذان ولكنك إذ تسمع الناصري تشعر بأن قلبك يفارقك في الحال ويسير هائما في أصقاع لم يزرها أحد بعد.

«قد عرف الناصري ينبوع ذاتنا القديمة وخبر الخيوط التي حاك القديم نسيجنا منها.

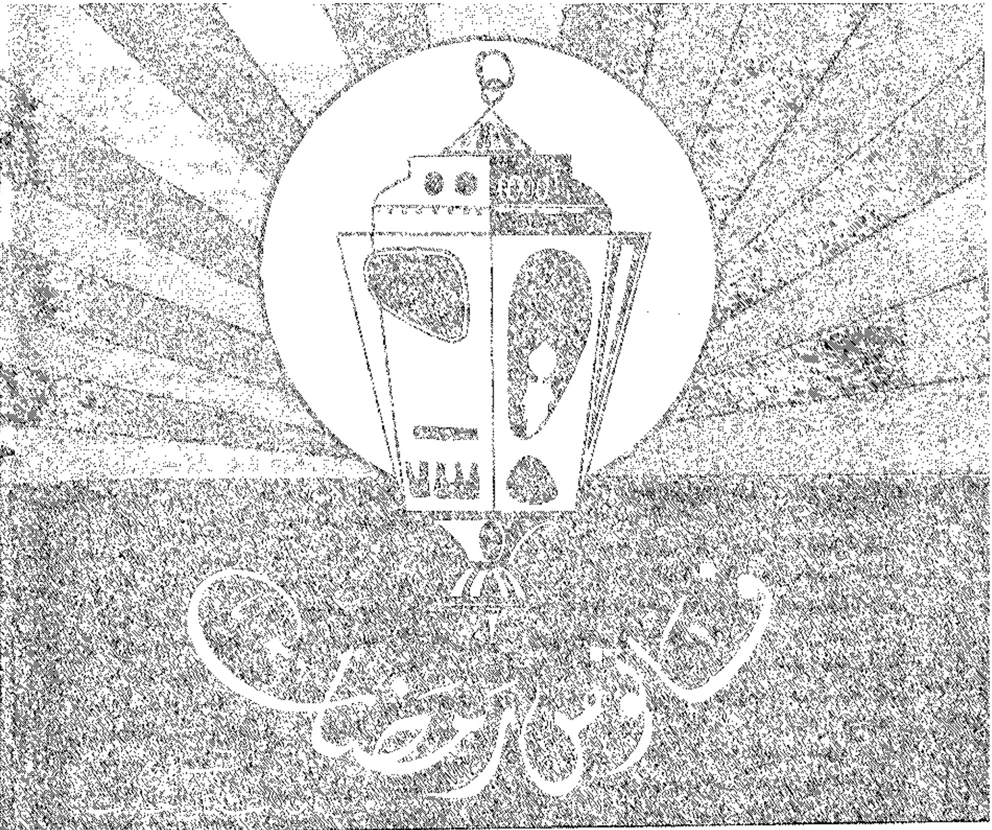
«إن خطباء اليونان والرومان خاطبوا الناس عن الحياة في نظر الفكر ولكن الناصري تكلم عن حنين كائن في أعماق القلب.

«أولئك رأوا الحياة بعيون قد تكون أنقى قليلا من عينيك وعيني أما هو فقد رأى الحياة بنور الله.

«وكثيرا ما أفكر في أنه خاطب الجموع كما يخاطب الجبل السهل الوسيع وكان في خطابه قوة لم تصل إليها أفكار أثينا وروما».

إن الخطاب الذي يصدر عن جبران ويتوجه دعوة انتماء وأسلوب عمل ومنهج ينبع من عقلانية الفطرة والطبيعة والحب، لا من عقلانية السياسة المدينية الحديثة وهمومها وحساباتها المعقدة أو الدقيقة. وهو في هذا الخطاب منحاز إلى أهل الفطرة وإلى من هم أهل للحب. وأولئك هم المستضعفون. ولعل أفضل ما أختم به كلمتي هو قول مخائيل نعيمة في انتماء جبران:

«لعل أحب الناس إلى قلب جبران هو ابن الفطرة وابن الطبيعة أكان راعي أبقار أم كان حراثاً أم عاملاً لا سلاح في يده غير المعول. ولعل أبغض الناس إليه هم الذين يتظلمون أبناء الفطرة والطبيعة فيهضمون حقوقهم ويمتهنون كرامة الانسان فيهم». ●





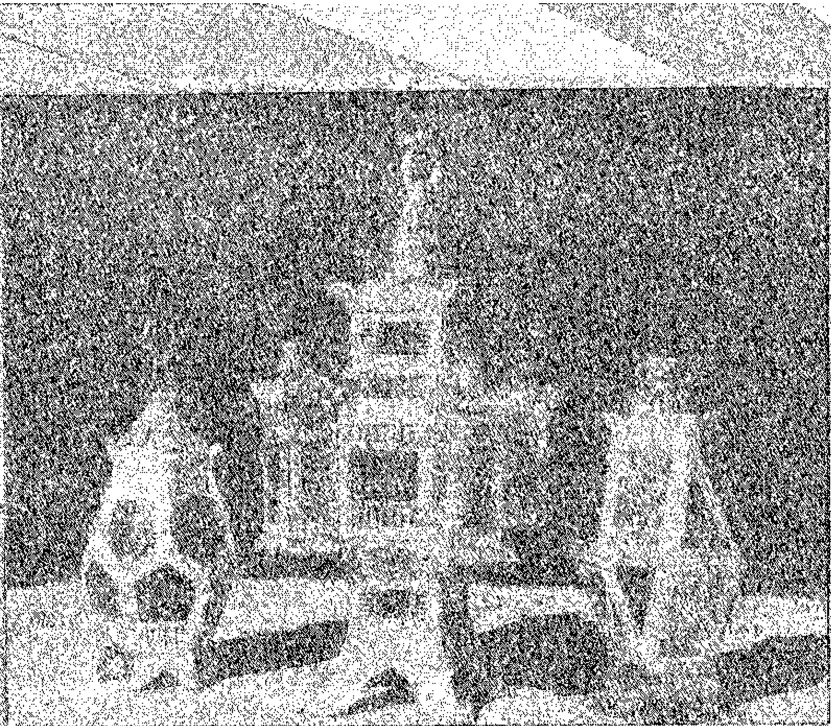
اعتاد المسلمون أن يهنىء بعضهم بعضا بحلول شهر رمضان المبارك. واعتدت بدوري أن أرفق التهنئة بواحد من فوانيس رمضان، وأن اقدم مع الكلمات هذه التحفة الرقيقة المعبرة التي اصبحت رمزا لهذا الشهر الخالد ترافق أيامه كلما حل. وفانوس رمضان قطعة فنية أبدعتها يد الصانع الشعبي، ففي شكله مغزى، وفي بساطته معنى، وفي الوان زجاج واجهاته بهجة وفي اقتنائه والاحتفاظ به بركة.

وذهبت كعادتي كل عام وقبل حلول شهر رمضان إلى شارع تحت الربع قرب بوابة المتولي لأقتني عددا من هذه الفوانيس، فقد أصبح هذا الشارع أهم سوق لبيعها والاتجار بها. وراعني أن أرى حوانيت اكتظت الفوانيس بداخلها واصطفت على واجهاتها كأنها عرائس الموالد في أشكال متعددة يحتار بينها البصر والوان متباينة يتوه خلالها النظر، وكأنها مهرجان رائع وحشد فني شعبي يكتمل شمله كلما اقبل شهر رمضان ثم ينفض بحلوله، فسرعان ما يقبل الناس من شتى الجهات على شرائها لتنير شموعها الأيادي في المدن والكفور والقرى.

ورجعت بفوانيسي من شارع تحت الربع وصففتها أمامي أرقبها وأتأملها، فاذا بي أعود الزمان، وسبح أمام ناظري طيف ذكريات عزيزة وعادات وتقاليد جميلة ولت الآن واندثرت، منها اثنتان ما زالتا باقيتين في مخيلتي عالقتين بذاكرتي. أولاهما، احتفاء فتيات الريف بفيضان النيل ووفائه وحضورهن إلى القاهرة من القرى القريبة يطرقن أبواب البيوت ويدخلن افنيتها وقد ارتدين ثيابا فضفاضة زاهية تطول حتى القدمين وأكمامها تكاد تغطي الكفين، وفي أيديهن رايات طال جريد أياديها وتباينت ألوان بيارقها وأطباق من الخوص يقدمنها هدية تقليدية ترمز إلى خيرات النيل تحوي ثمار البلح والجوافة والرمان. ثم يرقصن رقصتهن الشعبية الريفية مهتزات ممسكات بذيول ثيابهن منشدات (البحر زاد عوف الله ــ غرق البلاد عوف الله).

أما الذكرى الثانية فكانت تتكرر طيلة ليالي شهر رمضان، فيبارح صبية الأحياء الشعبية أولادا وبنات دورهم بعد تناول وجبة الافطار وفي أياديهم فوانيس صغيرة ملونة أشعلوا الشموع بداخلها ويمرون على البيوت محيين أصحابها داعين لسكانها. وكنت انتظر كل ليلة لقاءهم وأهرع إليهم بفانوسي لأشاركهم حفلهم، وكانت الفوانيس تهتز في أياديهم لما يهتزون وترسل خلال زجاجها الملون أضواء بيضاء وصفراء وحمراء وخضراء تلف معهم لما يلفون وتدور لما يدورون وهم ينشدون معا نشيد رمضان التقليدي:

وحوي	وحوي	إياحا
وكمان	وحوي	إياحا
بنت	السلطان	إياحا
لابسة	قفطان	إياحا
بالأخضري		إياحا
بالأصفري		إياحا



يا لموني إياحا
يا دوا عيوني إياحا
يا رب خالي سي (عثمان)
خالي نينته سي (عثمان)
لولا سي (عثمان) لولا جينا ياالله الغفار
ولا تعبنا رجلينا ياالله الغفار
يحل كيسه ويدينا ياالله الغفار
ويدينا ياما يدينا ياالله الغفار
ويدينا ياما يدينا ياالله الغفار
يدينا متين ريال ياالله الغفار
نروح بهم على بر الشام ياالله الغفار

فاذا ما اختتموا نشيدهم، كرروا الدعاء، بعد أن يجزل لهم العطاء. وأن كانت كلمات هذه الأغنية الرمضانية الشعبية واضحة مفهومة، إلا أنها تبدأ بكلمتين تسترعيان النظر وهما (وحوي) ثم(اياحا). ولو أن الكلمة الثانية (اياحا) قريبة من (أيوح) وهو اسم القمر في اللغة المصرية القديمة، إلا أنه من المرجح أن كلمة (وحوي) تحورت من مناداة أولاد (الحي) بعضهم بعضا ليكتمل شملهم، وأن كلمة (اياحا) تحورت بالمثل من كلمة (تحية)، حيث أن الغرض من اجتماعهم ومعهم فوانيسهم المرور على بيوت الحي لتحية ساكنيها.

وصحوت من غفوتي، بعد أن بهرني فانوس رمضان بجماله وذكرياته ورقته، وجذبني لأستطلع قصته وحكايته، وبدأت أسطر هذه السطور عن شهر يفضل باقي الشهور.

فشهر رمضان هو الشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وهو شهر الصيام والقيام والبر والاطعام والتسبيح والتراويح، تصفو فيه النفوس وتسمو الأرواح. ولذا ينتظر المسلمون حلوله في كافة الأقطار عاما بعد عام، ويحيطونه لقدسيته بشتى نواحي التعظيم والتكريم، ويحيونه بصنوف العبادة، ويغدقون فيه الخير على الفقراء والمعوزين.

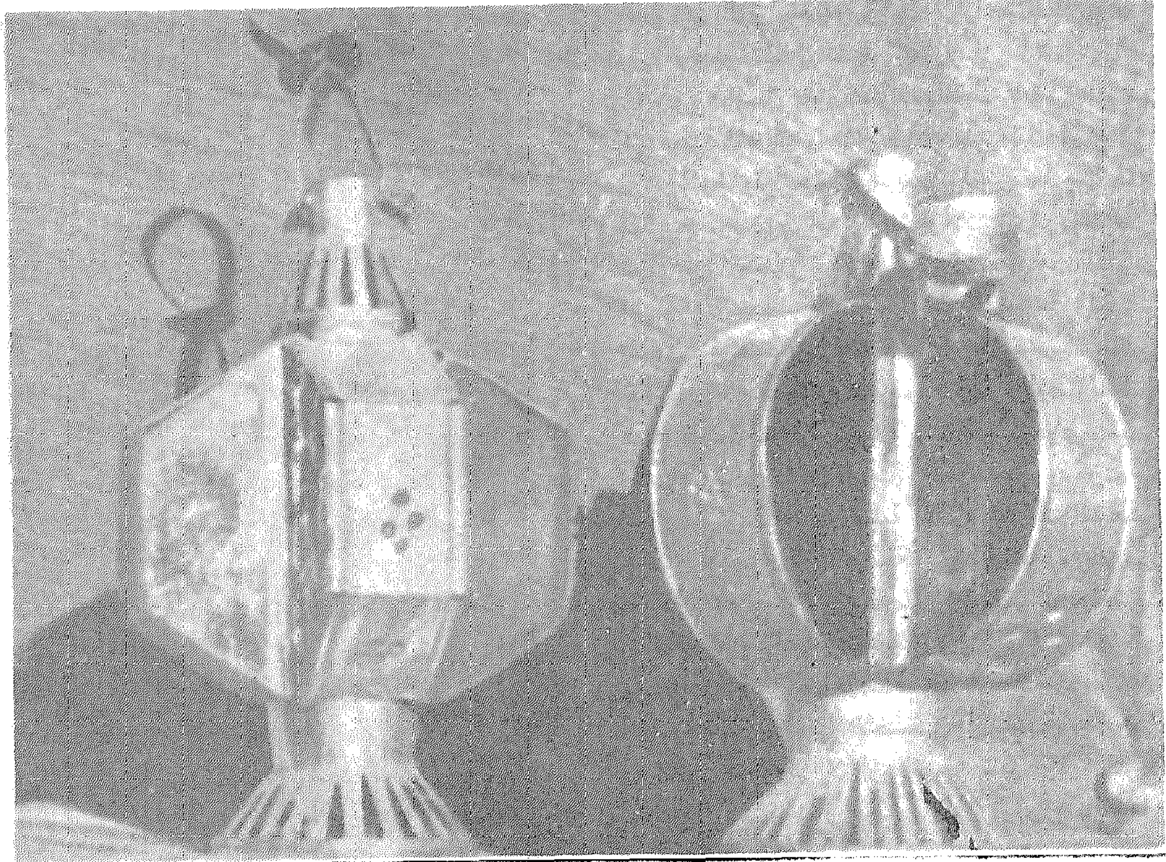
ولمصر عناية بتكريم هذا الشهر وخاصة في عصر الدولة الفاطمية التي كانت أيام حكمها مواسم وأعيادا. وكانوا يخصونه بالحفلات احتفاء لقدومه وبالمواكب لاعلان حلوله إذا ما هل هلاله الذي كانوا يرصدونه من فوق المنارات، ثم تمتد أيامه عامرة بمظاهر الايمان من صلوات ودعوات وابتهالات، شاملة لنواحي البر من زكاة وصدقات وخير وفير.

ورمضان شهر تشعر خلال أيامه بروحانيته وبهجته وجلاله وسطوته، فاذا ما حان وقت الغروب ترى الطرقات على ازدحامها تكاد أن تقفر والحركة أن تسكن، ويستقر الناس في بيوتهم وقت الأفطار. فإذا ما أرخى الليل سدوله بدأت الأنوار تسطع هنا وهناك وينقلب الليل نهارا وتدب الحركة من جديد في الحواري والطرقات ويفوح في أرجاء الشوارع والأسواق شذى البخور من العود الهندي والمسك والعنبر والكافور.

وفي الماضي كانت تسبق هذا الشهر مقدمات تبشر بقدومه والاحتفاء بحلوله أهمها الاستكثار من سبل الاضاءة من المشاعيل والقناديل والفوانيس والشمعدانات والثريات النحاسية تنزيها لبيوت الله من وحشة الظلمة وانسا للسائلة واضاءة للمجتهدين. وكان النشاط يدب في سوق الشماعين بالنحاسين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وتعلق على واجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع وأشكال الشموع ما بين صغيرة وكبيرة ومنها شموع المواكب التي تزن عشرة أرطال ومنها ما يحمل على عربة يجرها عجل ويصل وزن الواحدة منها قنطارا.

وكان حكام مصر يولون اضاءة المساجد عظيم اهتمامهم، ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله كان يعد للجامع الأزهر تنورا من الفضة و ٢٧ قنديلا ولجامع راشدة تنورا و ١٢ قنديلا، واشترط اضاءتها في شهر رمضان على أن تعاد هذه بعده إلى مكان أعد لحفظها فيه. فتتدلى من سقفها قناديل مسرجة، وتنتشر في نواحيها ألواح من الخشب برز منها صفوف من مسامير مدببة الأطراف غرس فيها الشمع، وتعلق على مداخلها وحول شرفات مآذنها مصابيح تطفأ عند موعد السحور ايذانا بالامساك.

وكانت حوانيت الأسواق التي تظل مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل تسطع نورا لكثرة ما يشترى وما يكترى منها، وبالمثل حجرات



□ فانوس شقة البطيخ مربع ومدور.

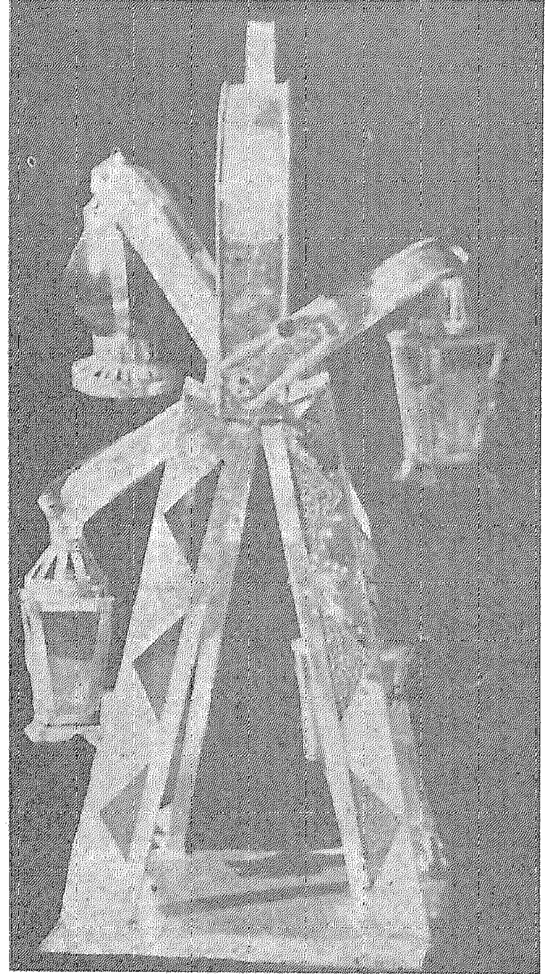
الدور والمنادر حيث يجتمع الناس لسماع ترتيل القرآن من المقرئين وحيث تصطف حلقات الذكر أو تعقد الندوات، أما الأزقة والحارات فكانت تزدحم بالناس الذين يخرجون جماعات للتزاور وقضاء السهرات حاملين شموعهم ومشاعلهم وقناديلهم وفوانيسهم لتنير لهم طريقهم. وهكذا كانت ليالي رمضان تتلألأ نورا وتسطع ضياء فلا تقع العين فيها إلا على نور.

فإذا ما حان موعد السحور خيم الهدوء وعاد السكون، فلا تسمع إلا أصوات المؤذنين يتجاوبون على المنارات في فترات متقاربة من الليل بتذكير النيام بالسحور بأشعار وأهازيج متعددة. والمسحر يطوف على البيوت طارقا أبوابها مناديا أصحابها وفي يده طبلة صغيرة يدق عليها دقات رتيبة لايقاظ النيام كي يتسحروا ويشربوا قبل فوات الوقت منشدا مواعظ ومحييا لسكانها راويا لهم الأقاصيص ثم يختتمها بقوله (يا صايم وحد الدايم ـــ السحور). فاذا ما قارب شهر رمضان من نهايته ردد المسحر كلمات وداع للياليه الخالدة.

ويقال أن المسحر في صدر الاسلام كان يمسك بقنديل به شريط طويل ينير له الطريق عندما يوقظ النيام، وكان الصبية يحيطون به في جولاته وقد أمسك كل منهم بقنديل مثله على سبيل التقليد. ثم حل الفانوس محل القنديل فاذا أشعل الشمع بداخله توزع نوره وبقيت شعلته دون أن يداعبها أو يطفئها الهواء، وأصبح فانوس السحور موضع مساجلة بين الأدباء والشعراء يتبارون في وصفه بخيال رائق، ومن ضمن ما قيل فيه:

هذا لواء سحور يستضاء به
وعسكر الشهب في الظلماء جرار
والصائمون جميعا يهتدون به
كأنه علم في راسه نار

وأصبح الفانوس أبرز وسائل الاضاءة وقتئذ وأكثرها شعبية وشيوعا لدى الأهلين، وكان له في ليالي شهر رمضان أمر وشأن لما يتطلبه الاكثار



□ المرجيحة.

من سبلها، ولذا كان الصناع من السمكرية يهتمون اهتماما بالغا بصنعه واعداد كميات كبيرة منه قبل حلول شهر رمضان، ولم يفتهم أيام الدولة الفاطمية أن يصنعوا فوانيس صغيرة ملونة يزينون بها واجهات حوانيتهم ليحملها الصبية وقد أوقدوا الشموع بداخلها يرافقون بها المسحر في جولاته ويلهون بها عقب الأفطار ويطوفون على البيوت محيين أصحابها. ومن تلك التقاليد قد يكون المسحر صاحب فكرة فانوس رمضان فمن فانوسه انتقلت هذه العادة إلى الصغار وأصبح لهم فانوس صغير مزركش متعدد الألوان.

* * *

وتنطوي صفحات الماضي، ويختفي الشمع والمشاعيل والقناديل، إلا أن عادات شهر رمضان وتقاليده لم تتبدل ولن تتغير ومن أبرزها فانوس رمضان الذي سيبقى دائما رمزا شعبيا وتحفة رقيقة معبرة لهذا الشهر المبارك.

ولوجه الحق، ان كنت قد ألقيت بعض الضوء على قصة فانوس رمضان، إلا أنني كنت أرجو أن أوفي الموضوع حقه وهذا الفانوس ما يستحقه فالمراجع لم تشر إليه إلا إشارات عابرة، ولم يفكر أحد من المقتنين في جمع نماذجه على مر السنين اللهم إلا بضع نماذج منه ضمها المتحف الأثنوجرافي للجمعية الجغرافية المصرية، حتى نتعرف على ما كان عليه وما صار إليه وأصبح عليه فمنه أشكال عديدة اختفت وأخرى بقيت وسواها تحورت وتطورت. وكما سبق وذكرت في مقال سابق، با ليت عملية اقتناء التراث الشعبي بشتى نواحيه كانت دائمة متصلة تتلقفها يد من يد على مر السنين لا منفصلة على فترات فيتخللها الكثير من الفجوات والثغرات وتغيب أسطر وصفحات وتصبح القصة ناقصة غير مكتملة.

ولم أجد أمامي لأضيف إلى قصة فانوس رمضان سطورا إلا أن اتوجه ثانية إلى شارع تحت الربع وأسأل بائعيها عن مقر صانعيها. وعثرت على أحدهم في شارع الدرب الأحمر وكان كهلا بلغ من العمر السبعين، وجلست معه أمام دكانه نتجاذب أطراف الحديث. وجبت بنظري في اركان حانوته المتواضع وما يحويه من أدوات بدائية لا تتعدى عدة ألواح من الصفيح وأخرى من الزجاج ومقصا وزرادية وكاوية وقصدير والفونية للحام والماظة لقطع الزجاج ثم عدة أوعية تحوي من الألوان الأصفر والأخضر والأزرق والأحمر يلون بها الزجاج الأبيض بقطعة من القطن بعد أن شح من السوق الزجاج الملون. وعجبت كيف يخرج هذا الحانوت البسيط، وهذه الأنامل المرتعشة تلك الفوانيس الرائعة وهذا الفن الشعبي الدقيق.

* * *

ومنه علمت أن هذه الحرفة التقليدية يتوارثونها أبا عن جد، وأن صانعي فوانيس رمضان تستقر حوانيتهم في أحياء الدرب الأحمر وبركة الفيل وشارع السد بالسيدة زينب والجيزة، وأنهم يبدأون في صنعها قبل حلول شهر رمضان بثلاثة أو أربعة أشهر وفي شهر

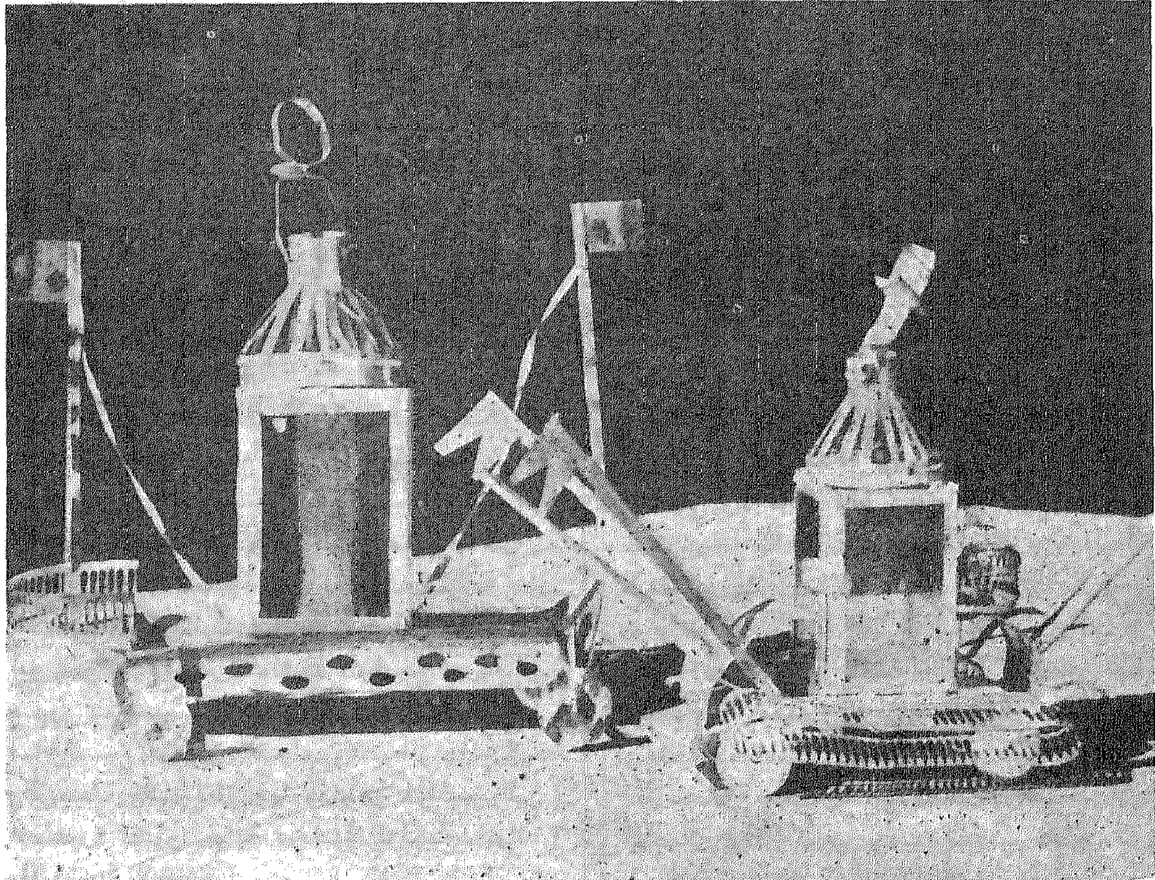
ربيع الثاني بالذات، وأن في قدرة الصانع منهم أن ينتج من ٤٠ إلى ٥٠ فانوسا في اليوم الواحد ثم يرسلون حصيلة انتاجهم إلى شارع تحت الربع فتزدان معظم حوانيت هذا الشارع بشتى نماذج هذه الفوانيس ومختلف أنواعها وألوانها وأشهر من يتجرون بها أولاد أبو العدب والحاج محمد شتا. ومن هناك توزع على العديد من حوانيت القاهرة وخاصة في الأحياء الشعبية وترسل إلى المدن والقرى والكفور في سائر المحافظات، كما يصدر إلى السودان وسوريا وليبيا وبلاد الحجاز كميات كبيرة منها.

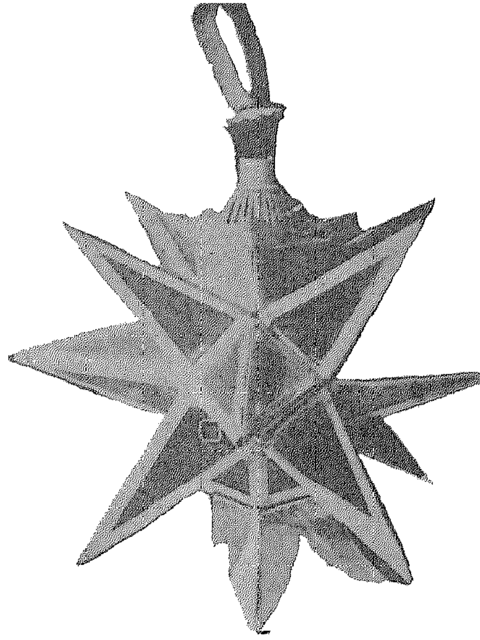
* * *

ومن الفوانيس ما هو (عدل) ويتساوى اتساع قمته مع قاعدته، ومنها ما هو (محرود) وتنسحب قمته بضيق نحو قاعدته. ويصنع هيكل الفانوس جميعه من الصفيح لسهولة قصة وخفته ويزين بنقوش دقيقة عند قاعدته وقمته، ويعلوه (علاقة) مستديرة لحمله، يليها (القبة) وتتكون عادة من شرائح رقيقة عديدة قصت لتصطف إلى جوار بعضها بدقة ومهارة واتقان، وقد يتدلى من حواف هذه القبة كحلية عدة شرائط مستطيلة تسمى (دلايات). وقد يكون للفانوس باب يفتح ويقفل لوضع الشمع في (الشماعة) بداخله، وقد يكون دون باب ويحل محله ما يسمى (عرق) وهي قاعدة يسهل فصلها عن الفانوس تسمى (كعب) يعلوها الشماعة ثم ترشق في الفانوس عقب وضع الشمع مرة أخرى. ويبدأ زجاج الفانوس من مقرنص ــ شقة البطيخة (مربع أو مدور)، شمسية ــ بدلاية. ومن الفوانيس ما يصنع أعلى بشرائح مثلثة تسمى (مشطوبة)، يليها زجاج واجهاته وهو إما عدل أو محرود أو بيضي الشكل ويسمى (لوح) وكله ملون بصبغات يتبادل فيها مع اللون العادي الأبيض اللون الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر.

ويتراوح ثمن فوانيس رمضان ما بين الثلاثة

□ فانوس مربع عدل بشكل دبابة وآخر بشكل مركب.





□ فانوس ابو نجمة.

قروش لأصغرها حجما وستين قرشا لأكبرها، ويتفنن الصانع الشعبي في اعدادها في أشكال شتى وأنماط متعددة لكل منها اسم معين، وقد لاحظت في الفوانيس الكبيرة الحجم أن صانعها قد حرص على تسجيل اسمه عليها فمنها ما هو مكتوب عليه (كمال أو طه). ومن هذه الأشكال ما اختفى واندثر كفانوس (طار العالمية ويسمى أيضاً أبو نجمة ــ والشيخ علي ــ وعبد العزيز)، ومنها ما يتداول حاليا في السوق.

وأصغر فوانيس رمضان حجما يسمى (بز) وقد يكون له باب أو كعب ولا يتعدى طوله العشرة سنتميترات، أما اكبرها فيسمى (كبير بأولاد) وهو مربع عدل وفي أركانه الأربعة فوانيس أخرى أصغر حجما، و (مقرطس أو ميزبز كبير) وهو بشكل نجمة كبيرة متشعبة ذات اثني عشر ذراعا.

وتتعدد أسماء الأشكال الأخرى لفانوس رمضان، فمنها: مربع عدل ــ مربع محرود ــ مسدس عدل ــ مسدس محرود ــ مربع بشرف (أي له شرفة منقوشة من الصفيح حول قمته) ــ أبو حشوة (وله حلية منقوشة من الصفيح أسفل شرفته) أبو لوز ــ أبو حجاب ــ ابو عرق ــ مقرنص ــ شقة البطيخة (مربع أو مدور ــ شمسية بدلاية، ومن الفوانيس ما يصنع بشكل الترام والقطار والمركب والمرجحية وهذه يعلق بها عدد من فوانيس البز الصغيرة لتدور حولها مشابهة لمراجيح الموالد والمواسم والأعياد.

وعلاوة على هذه الأشكال فهناك أشكال أخرى كان يقوم بها صناع من القاهرة ثم استقروا في بورسعيد والاسماعيلية فأصبحت تنسب إلى هاتين المدينتين وترسل لتباع في أسواق القاهرة وتخرج في شكلها عن الطابع التقليدي المعروف إلى شكل فانوس الهواء وفي كون زجاجها الملون قطعة واحدة كروية أو بيضية مستطيلة حسب تدرج أحجامها، ويسمى أصغرها (سهارى) ثم تتدرج في الكبر لتسمى على التوالي (فنيار نمرة ٣ و ٤ و ٥ و ٧).

وللأحداث تأثير كبير على الصانع الشعبي حتى في اخراج فانوس رمضان، فقد انطبعت مشاعره بأحداث العدوان الأخير فأخرجت أنامله فوانيس بشكل (الدبابة والطيارة) وفانوسا زاده طولا فازداد رشاقة وجمالا اسماه (الصاروخ) وآخر اسماه (علامة النصر).

وأخيراً، لا أجد ما اختتم به هذا المقال سوى أننا إذا تركنا ما قد اندثر من تراثنا الفني الشعبي وما فات، وجب علينا أن نولي بالأهمية ما تزخر به بلادنا حاليا وما هو آت، وأن يتحقق الحلم ونشيد في بلادنا متحفا كاملا شاملا يضم شتى نواحي تراثنا الفني الشعبي، وأن نحرص على الاستمرار في الجمع والاقتناء لتكون هذه النماذج الأصيلة وتلك المقتنيات خير مادة فكرية وثقافية لجماهيرنا، تحكي قصة ماضينا وتكون خير سجل لحاضرنا ومستقبلنا، ولنستمد منها الأصالة في كل تطوير جديد وتصميم حديث.

●

قراقوش... والفكاهة في حياة المصريين!

د. محمّد أمين فرشوخ

قراقوش مضرب المثل، حتى اليوم، بسوء أحكامه، وقلة تدبيره، وطريقة فهمه العجيبة للأمور. ولكن، لا أحد يعلم، أن قراقوش، كان «موضوعا» يثير فن «الكاريكاتور». فقد اتخذه الفنانون المصريون في عصره «نموذجا» يمارسون في السخرية منه فنهم، سواء بالرسم أو النكتة اللاذعة، أو الطرفة الفنية.

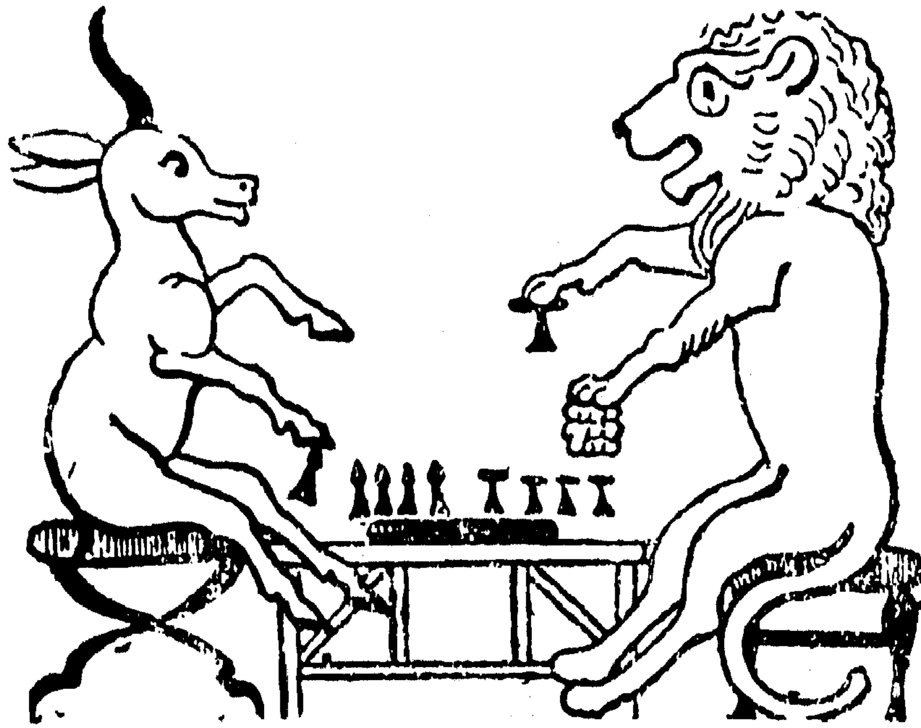
فمن كان قراقوش، ومن كان أولئك الفنانون؟ المقال التالي يعرفنا بكل هؤلاء!



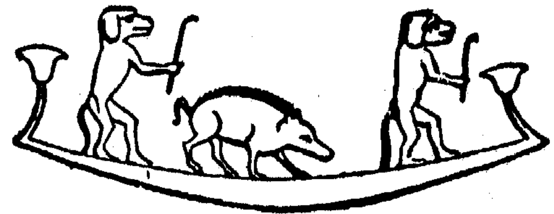
يعتبر قدماء المصريين والاغريق من أوائل مَن استخدم الرسم الساخر (الكاريكاتور) على جدران الكهوف. فقد صوّر المصريون رجلاً اسمه «ست» في صورة وحش وأطلقوا عليه لقب «ست الملعون» لأنه قتل اخاه ورمى جثته في النيل، وتفننوا في تصوير عظمائهم بأوجه حيوانات صغيرة وكبيرة، جميلة وقبيحة، بحسب أخلاقهم وميولهم وطباعهم[1].

ومن ثم نجد الفكاهة في بطون كثير من الكتب القديمة، دينية كانت أم أدبية أم علمية، ونجدها أيضاً في تلافيف اللغات العامية، تتناقلها الألسن امثلة وأساطير، وتجسدها عادات واحتفالات شعبية، حتى باتت جزءا مهما من الفولكلور الخاص بكل أمة.

ولأن الفكاهة اللاذعة كانت وما تزال الأكثر قدرة على البقاء وعلى الاضحاك، فقد كان للفكاهة في الجانب السياسي دور بارز. حتى الفراعنة، منذ ما قبل الميلاد استخدموا الفكاهة للسخرية



□ غزال وأسد في لعبة من العاب التسلية وقد علا وجههما الابتسام.

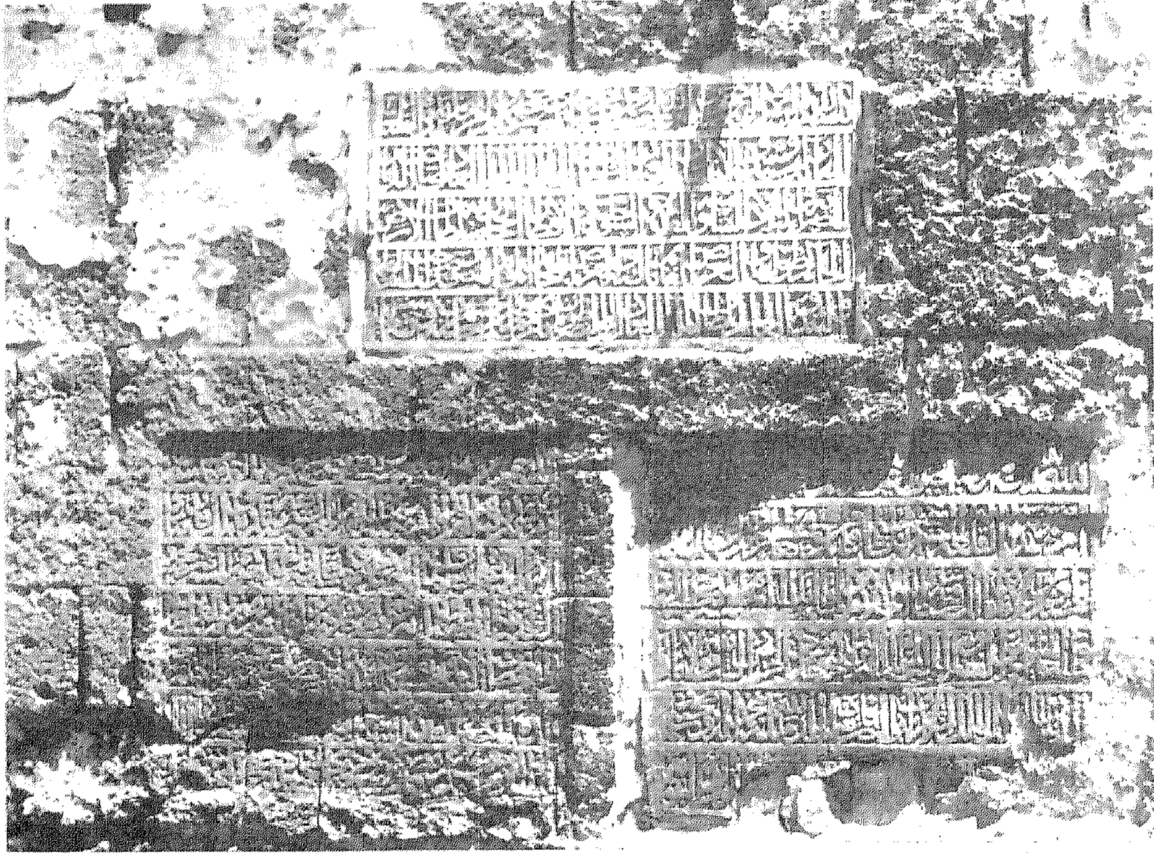


□ محاكمة روح ملعونة مثلها الفنان على هيئة خنزير (عن مقبرة رمسيس الثالث).

من بعض إدارييهم المرتشين أو المستغلين، وهناك صورة على جدار معبد قديم في مصر تمثل ذئبا يرعى الغنم، وكأنها تقول: «حاميها حراميها».

«فالفكاهة ليست دائماً أمام الباحثين طرائف للهو وجلب السرور فحسب، بل هي في كثير من حالاتها تصوير للحالة السياسية بألوان فيها تهكم أو سخرية أو نقد أو دعابة أو غيرها، وذلك لأن الناس لا يستطيعون أحياناً أن ينالوا من حكامهم بالأسلوب الجدي، فيلجأون الى الأسلوب الفكاهي، لأنه مأمون العاقبة»[٢].

ويذهب المؤرخون الى القول انه عن طريق الفكاهة في بلد ما يمكن استخراج صورة للحياة السياسية والاجتماعية فيه في تاريخ محدد. وهنا تكمن أهمية النص الفكاهي أو الكتاب الفكاهي الجامع، أمام الباحث أو المؤرخ، فأشكال الفكاهة المتداولة في بلد ما هي تنفيس طبيعي للتوتر الذي يصيب الناس من جراء المعاناة أو العلاقات مع الآخرين. وهي هنا تأكيد لشخصية الشعب، يظهر فيها احساسه. وهكذا فالانسان العادي ــ ودون تفكير ــ لا ينتظر أن يضحك فقط من المختص بهذا الفن، «فليس من الضروري أن نفتش عن رجل يحسن صناعة الضحك ليضحكنا وأمثاله قليلون، فإن في كل رجل من الذين نراهم أو نعاشرهم موطناً للنقص، وفي كل عمل موضعاً للكلفة والتصنع»[٣]، لذا يكون رجال السياسة أو الأعيان الوقورون في تعاطيهم الادارة أو تصريف شؤون الناس مدار فكاهة الشعب حين يخطئون، بخاصة، حين لا تكون هناك إمكانات أخرى لتصحيح أخطائهم أو مجابهتها.



□ الكتابات المنقوشة عند باب المدرج

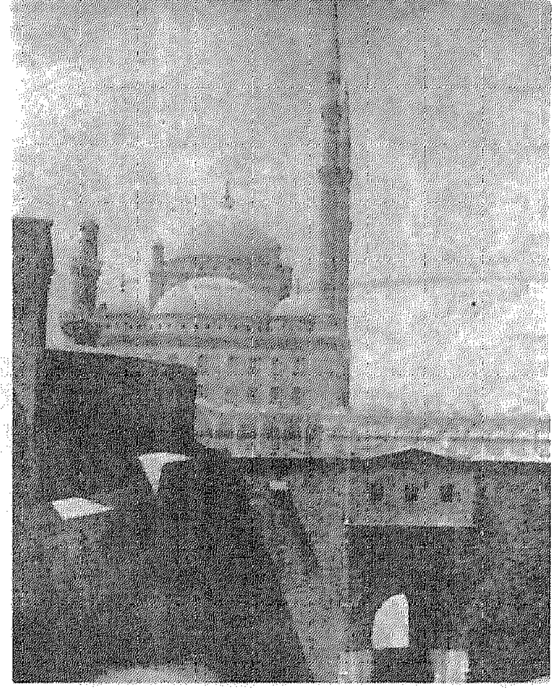
في مصر، وهي موضع حديثنا هنا، تميز الشعب بالفكاهة والطبع المرح. ويقول المؤرخون أن مرد ذلك الى ابتعاد مصر عن الكوارث الطبيعية والسياسية، ولايمان المصريين، ولتمتعهم بالاطمئنان والتفاؤل بخيرات النيل الوهّاب. واذا أردنا ألا نغالي ووافقنا «غوستاف لوبون» على قوله: «اذا كان المصري قد شعر بالسأمة من سهولة الوضاءة المحرقة فانه قد جهل الآلام المفزعة التي تنشأ على شواطىء البحار الموحشة وفي ظلال الشفق الأغبر تحت السماء المتقلبة الغادرة»(٤)، لأمكن القول أن الفكاهة المعتمدة على الطبخ والمناخ متوفرة بين المصريين ولا تنتظر الفرص للظهور، بل هي دائمة الاعلان عن نفسها. يقول ابن خلدون أنه لحظ ميل أهل مصر للفرح والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم(٥).

وفي الكتب الكثير من فكاهات المصريين في تصوير الفرس واليونان والرومان ــ الغزاة الطامعين ــ حتى قال فيهم الشاعر اليوناني ثيوكريتوس: «انهم شعب ماكر لاذع القول روحه مرحة». وكذلك في العصور الاسلامية لم يدع المصريون ظالماً أو فاشلاً من الحكام الطولونيين أو الأخشيديين إلا وتفكهوا عليه، وكذا في العصرين الفاطمي والأيوبي.

وهنا يأتي دور قراقوش... وهو أحد وجوه الفكاهة المصرية.

قرّاقوش

المعلومات التي تعرف بقراقوش قليلة جداً. وكأنما ترك أمر تعريفه للفكاهات التي تنوقلت عنه، واعتقد أنها كافية وافية. أما المعلومات التاريخية فهي ان بهاء الدين قراقوش تركي الأصل كان أحد القادة العسكريين في جيش صلاح الدين، وكان نائبه في حكم مصر إذا ما غاب عنها في محاربة الصليبيين، وقد عرفت عنه القسوة والصرامة والغلظة، فضلاً عن الغفلة، وربما تعزى هذه الصفة الأخيرة إلى عدم



□ باب القلعة المتوسط.

خبرة قراقوش في السياسة وتمرسه بها، من جهة، وعدم قدرته على تقليد صلاح الدين، الحاكم الأصيل، والقيام بجميع مهامه السياسية والادارية في أثناء غيابه، من جهة أخرى.

وكان ذلك يوقعه في مآزق حرجة، بخاصة، حين ندرك أنه عسكري قاسي الطبع، فيحاول أن يتخطى جهله أو يداري قسوته بفظاظة مقصودة تظهره في صورة الأحمق أو المجنون. وليس مستبعداً أن يكون قد عرف صدى مواقفه عند الشعب فاستغل ذلك وتمادى فيه، ظاناً أنه يتوخى العدل حين يطلب الحق دون الرجوع الى العرف والقانون المعتمد. وأخيراً، قد يكون بحق مجنونا تمادى به خياله فراح يبتدع القوانين ويوقع العقوبات ويتصرف في شؤون الناس والادارة دون ترابط منطقي أو اعتماد على ما تعارف عليه الجميع من أسس الحق والعدالة، «والفكاهة هنا هي في المفارقات الحاصلة والتي يمكن اعتبارها لوناً من الشذوذ في التفكير مما اصطلح عليه الناس، فالمجنون في حل مما أصبح بحكم العادة تقليداً سارياً»(٦).

ومعظم الفكاهات التي أطلقت على قراقوش كانت من اختراع ابن مماتي في كتابه «الفاشوش».

من هو ابن مماتي؟

أسعد بن مماتي من عائلة نصرانية نزحت من أسيوط الى القاهرة في زمن الفاطميين، وكان بينهم أعيان مثقفون، فقربهم الحكام منهم وولوهم إدارة كثير من أعمالهم، وبقيت حالهم كذلك حتى قدوم «صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين صاحب الشام وأصبح اليهم امر مصر، فوجدنا هذه الأسرة تدخل في الاسلام. رعاها صلاح الدين، فجعل رئيسها الخطير ابن مماتي قيماً على ديوان الجيش، فلما توفي خلفه ابنه أسعد في عمله ثم أسندت اليه الشؤون المالية فأحسن تدبيرها وتصريفها»(٧).

والأسعد هذا اشتهر في عصره بسرعة البديهة وحضور الفكاهة. وقد تعلق بشخص قراقوش — وهو كما عرفنا — فألف فيه الحكايات المضحكة التي تصور حمقه في أحكامه، وجمع هذه الحكايات في كتاب سماه «كتاب الفاشوش في حكم قراقوش»، وهو من أقدم الكتب الفكاهية، بالمعنى الدقيق للكلمة، في تاريخ مصر الاسلامية.

يقول ابن مماتي في مقدمته: «انني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد اتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظم منزلته، أن يرد على كلمته، ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكماً ما انزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين».

لقد رسم ابن مماتي في هذا الكتاب صورة كاريكاتورية للحاكم الأحمق، حتى باتت هذه الصورة «النموذج» لما قد يرد من مشابه لها، ونالت من الشهرة ما حمل الكثيرين على تقليدها في كتبهم، فلقد الف السيوطي في عصر المماليك كتاباً آخر في أخبار قراقوش جعل له العنوان نفسه، ولكن ابن مماتي يبقى السباق الأصيل، رغم ما زيد على «نموذجه» من حكايات...

يقول المستشرق كازانوفا الذي عني بنشر هذا الكتاب ان ابن مماتي لم يؤلفه لغرض السخرية من ظلم قراقوش وغبائه فقط، بل الفه سخطاً على الدولة الجديدة التي خلفت الفاطميين. فابن

مماتي لم يصور فقط ما كان يشعر به تجاه قراقوش بل صوّر سخط المصريين كلهم على حكامهم الأيوبيين، بخاصة هذا الحاكم الذي كان يتصرف في القضايا بحمق غريب، فيه ما يذهل وما يحير، بل فيه ظلم صارخ مضحك، لقد لجأ ابن مماتي الى سلاح الفكاهة، فكان أمضى سلاح يمكن أن يشهره. فالفكاهة سلاح الضعفاء حين يعجزون عن مواجهة الاقوياء بما يمنعهم عن غيهم ويحد من ظلمهم.

ولم يزل المصريون يرددون: «ده ولا حكم قراقوش» وانتقل المثل لكل العرب حتى صار تعليقاً على كل حكم جائر: «حكم قراقوش»!...

من نوادر قراقوش

● توقف النيل في مصر أياماً، فنظر قراقوش فرأى جمال السقايين وهي تسير في شوارع القاهرة عشرين عشرين، فقال: يا علمان نادوا في المدينة «قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يملي أحد من ماء البحر إلا جملاً واحداً، ففعلوا ذلك فأوفى النيل، فقال: «يا هؤلاء كيف رأيتم رايي عليكم؟ ما هو إلا راي مبارك».

● ذكر ان رجلين من ذوي اللحى الطويلة شكوا اليه رجلا أجرد لأنه يعبث بلحيتيهما، فنظر قراقوش اليه فلم يجد له لحية فظن أن الرجلين الآخرين هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته، فصاح في غلمانه: «خذوهما الى السجن ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الرجل».

● يحكى أن حداداً قتل شخصاً، فحكم عليه بالشنق، فشفع فيه بعض المقربين إلى قراقوش، وقالوا له: «انه حداد يخدمك، وينعل لك الفرس، فان شنقته لم تجد غيره». فنظر قراقوش الى ناحية الباب، فوقعت عينه على رجل قفاص، فقال: «لا حاجة بنا الى هذا القفاص فاشنقوه بدلاً من الحداد».

● شكا الفلاحون اليه برداً أصاب قطنهم فأتلفه، والتمسوا منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك العام. فأبى، لأن القطن أصابه البرد لاهمالهم، ولأنهم لم يزرعوا معه صوفاً يدفئه.

● تقدمت له سيدة سوداء تشكو جارية لها مملوكة، فعجب قراقوش أن تكون امرأة بيضاء مملوكة لسيدة سوداء، فرد شكواها عليها، مدعياً انها ليست السيدة، بل هي الجارية، والجارية هي السيدة، وهم بحبسها لولا أن تدخلت الجارية فعفت عن سيدتها.

● نشر قميصه فوقع القميص من الحبل، فتصدق بألف درهم، وقال: «لو كنت البسه ساعة وقوعه لانكسرت».

● ويحكي السيوطي أنه «كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلاً، وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما فزاد عليه الدين، وما مات والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة، فدخل هو والدائنون عليه، وغسلوه وكفنوه ووضعوه في النعش وهو يستغيث فلا يغاث، وجاءوا حول تابوته بذاكرين بصيحون حوله، فلما دخلوا للصلاة عليه في المسجد، اتفق أن قراقوش كان ماراً فنزل وصلى عليه فلما سمع الميت بذلك قال: «الحمد لله جاءني الفرج»، فجلس في التابوت وقال: «يا مولانا السلطان خلص حقي لي من ولدي، فانه يريد دفني بالحياة»، فقال له: «كيف تدفن والدك بالحياة؟» فقال الولد: «كذب يا مولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ولا حملته إلا وهو ميت، وهؤلاء يشهدون بذلك». فقال للحاضرين: «أتشهدون بذلك؟» فقالوا: «نشهد بما قاله الولد». فالتفت قراقوش للميت. وقال: «أنا جننت، اصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين. روح اندفن بلا شفاعة لئلا تطمع فينا الموتى، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم». فحملوه ودفنوه بالحياة في ذمة قراقوش». ●

هوامش

(١) للتوسع، راجع منى جبر، فن الكاريكاتور، القاهرة.
(٢) د. احمد محمد الحوفي، الفكاهة في الادب، القاهرة، ص ٣١٩.
(٣) العقاد. جحا الضاحك المضحك، القاهرة ص ٢٦.
(٤) غوستاف لوبون ــ الحضارة المصرية القديمة ــ ص ٧٥.
(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٩٢.
(٦) د. عطية الله، سيكلوجية الضحك، القاهرة ص ٣٢٢.
(٧) د. شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، الهلال، القاهرة ص ٣٥.
(*) الفاشوش هو ضعيف الرأي والعزم. معنى الكتاب: الخراب والخسارة في حكم قراقوش.

☐ اليعاقبة يهاجمون نابوليون في مجلس الخمسمائة...



بقلم
ألان دوكو
من «الاكاديمية الفرنسية»

انقلاب ١٩ برومير

الذي حمل نابليون إلى سدة الحكم

تعريب: د. رياض العالي

يعتبر انقلاب ١٨ ـ ١٩ برومير، الذي كرس صعود نابليون إلى سدة الحكم، مرحلة حاسمة في تاريخ فرنسا! كما أن «سييس» أول من فكر في الانقلاب، خوفاً من تطرف اليسار اليعقوبي، واحتمال إعادة الملكية. لذلك كان لا بد له من الاعتماد على الجيش. أي على نابليون بونابرت العائد حديثا من مصر. وقد اتفق الاثنان على الخطة، فحصل سييس على استقالة زملائه في «حكومة الادارة» (غوهيـي، مولان، بارّا، وجورج دوكو). وسعى نابليون إلى نقل الجسم التشريعي (المكـون من مجلس النـواب والشيوخ) إلى سان كلو، بعيداً عن باريس، وقد رضخ المجلسان للطلب، ثم حلا نفسيهما بعد ذلك. ولكن، سبق ذلك دخول نابليون إلى قاعة اجتماع المجلسين، فأحاط به حشد ناقم، هذا يشتم، وذاك يصرخ في وجه الجنرال النحيف، بل إن أحدهم كاد يخنقه، إذ عصر عنقه بكفيه القويتين، فتهاوى نابليون، وكاد يغمى عليه، فحمله جنود المدفعية إلى خارج المجلس، والصيحات تتردد: خارج على القانون، خارج على القانون. غير أن نابليون ربح الجولة. على كل حال، ما الذي حدث قبل الانقلاب.



التاسع من تشرين الأول ١٧٩٩، رسا قارب مقابل سان رافاييل، وقد حمل من مصر الجنرال بونابرت، ولم يمض شهر على ذلك حتى حدث الانقلاب.

التقى بونابرت «المدير» سييس، واتفقا على الانقلاب. وكان نابليون آنذاك بطلا في نظر الشعب كله، خاصة إثر انتصاراته في ايطاليا، وحملة مصر. وكان الشعب يتذمر من سوء الأحوال في عهد حكومة الادارة، ولم تكن حاله قبل ذلك أحسن.

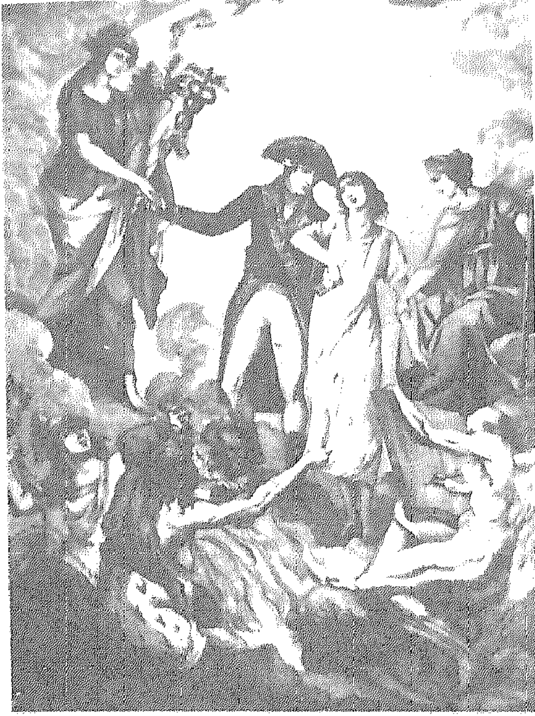
واتفق الاثنان على نقل مجلسي النواب والشيوخ إلى سان كلو، فقد كانا يخشيان خضوع المجلسين لفورات الشعب المتوالية، التي يمكن أن يستغلها خصوم نابليون. والواقع أن الشعب، منذ الثورة الفرنسية لم ينفك يقوم بالفتن، والعصيان، والثورات، الصغيرة، فيفرض على المجلسين اتخاذ قرارات تحت ضغط الخوف.

وكان مجلس النواب قادرا على تقرير الانتقال، لأن أصواته تمثل الغالبية، وقد توصل سييس إلى إقناعه باتخاذ ذلك القرار الذي كان المقدمة لانهاء خدماته. وكان لسييس أصدقاء كثر في المجلس اعتمد عليهم في إقناع الآخرين.

أما نابليون فأخذ على عاتقه أمر إقناع الجيش. اتصل بسيباستيان ومورا. فأيدا رأيه، وأكدا أن الجيش كله يؤيده. بقي ضروريا إقناع قائد فرقة باريس، لوفيڤر، المعروف بعناده. وقد زاره نابليون، وقدم إليه السيف الذي كان يحمله وهو قرب الأهرام: «عرفانا بفضله، وثقة منه به». فتأثر لوفيڤر، وأعلن: «لنلق بالمحامين إلى النهر» ويقصد النواب.

أما برنادوت، فاختلف الحال معه. فبرنادوت، طامع آخر بالسلطة. وكان من شأنه أن يقف مع الغالب ضد المغلوب. مع ذلك كان لابد من محاورته.

ومن جهة ثانية كان على نابليون الاتصال بوزير الشرطة، جوزيف فوشي، الذي لم يحاول لقاءه منذ عودته من مصر. وسعى إلى خداعه ومراوغته، فاستعان بريال، مفوض الادارة، في قطاع باريس. غير أنه اضطر إلى لقائه. وقد أذهله فوشي بمنطقه السديد، ووضوح فكره، وقد



□ بونابرت يعيد الأمل والسلام إلى فرنسا. لوحة عن ١٨ برومير.

ضمن نابليون صمت فوشي وعدم معارضته الانقلاب.

الخامس عشر من برومير، اقيمت في كنيسة سان ـ سولبيس مأدبة فخمة على شرف نابليون، ضمت ٧٥٠ مدعوا. وكان بونابرت يأكل صامتا. وفي نهاية المأدبة اختلى بسييس الذي انبأه أن كل شيء قد تم، وحدد ليل ١٧ برومير موعدا للانقلاب. ولكن هذا الموعد أجل، في ما بعد، إلى ١٨ برومير.

وافق نابليون على الذهاب، يوم ١٨ برومير، إلى منزل غوهيي، للغداء عنده. وزيادة في الخديعة دعا نابليون غوهيي وزوجته للفطور عنده الساعة الثامنة صباحا.

في هذا الوقت تناهت إلى بارّا معلومات أقلقته، فنشط لقطع الطريق على أية محاولة للقضاء على الجمهورية، ولكن نابليون استعان بالخديعة مرة أخرى، فوعد بارا أن يزوره سرا، ليل ١٧ ـ ١٨ برومير. وحين حل الموعد، أرسل نابليون سكرتيره، يعتذر من بارا، بحجة أن الجنرال يعاني من «الشقيقة». ويؤكد أنه قادم اليوم التالي لزيارته. ولكن بارّا شعر أن الجنرال لن يأتي

أبداً. وقال لبوريين ــ سكرتير نابليون: «مع هذا فان بونابرت يدين لي بكل شيء». ونقل بوريين الخبر كما هو لنابليون، فقال هذا: موعدنا غدا مساء، الساعة السابعة.

الجمهورية في خطر

السابعة من صباح الثامن عشر من بروميير، التأم في قاعة التويلري، مجلس النواب ــ وكان يدعى مجلس القدماء ــ فقد دعي منذ الليل، بدعوات خاصة، وأغفلت دعوة من كانوا يشكلون خطرا. ومن المقاعد تواترت الهمسات: لماذا هذا الاجتماع الصباحي الطارىء؟

صعد المنبر، صديق سييس، النائب كورني، وكان شديد الاضطراب، وأعلن أنه يجب إنقاذ الوطن والجمهورية من خطر داهم ــ يقال اليوم إن اليعاقبة سرّعوا في انهيار النظام ــ.

صعد المنبر صديق آخر، هو النائب رينيي. وأكد أن ثمة مؤامرة تحاك ضد الوطن والجمهورية. وطالب بنقل الجسم التشريعي إلى مكان آمن، بعيد عن باريس. فوافقت الجمعية، وتقرر الانتقال إلى سان كلو. ومن أجل الحفاظ على الدستور، خوفا من «العقبان» كلّف بونابرت الذي لا يشك في تعلقه بالجمهورية، بالسلطات الحربية.

هتف رينيي: لا تخشوا يا ممثلي الشعب، ولا تقلقوا، فبونابرت ساهر.

ولكن همهمات تعالت من المقاعد، وطلب نواب يساريون الكلام، وصرخ بعضهم محتجا، داعيا إلى تبرير هذه المؤامرة الجديدة. ولكن الأكثرية قطعت عليهم الطريق، وعلت أصواتها على أصواتهم، وطرح المشروع على التصويت، ففاز بالأغلبية، وأعلن بونابرت قائدا للقوة العسكرية.

لم تدم الجلسة أكثر من ساعة. وقد نجحت خطة سييس، نقطة بعد نقطة، حتى تلك الساعة، فجأة اقبل حاجب لينبىء نابليون أن عدداً من الضباط ينتظرونه في بيته منذ الصباح.

كانت السيدة غوهيي قد قدمت مع زوجها، فلما رأى جمع الضباط، أرسلها وحدها، وعاد من حيث أتى، فسارعت جوزيفين تستقبلها بحفاوة، وتسألها عن سبب عدم حضور زوجها، فأخذت السيدة ورقة، وكتبت رسالة زعمت أنها تدعوه فيها للاسراع بالمجيء، والواقع أنها أوصته الا يأتي!

في هذا الوقت كان نابليون يطير على حصانه الأسود، تحيط به حاشية ضخمة من أركانه، إلى التويلري، ليقسم أمام المجلس يمين الاخلاص للدستور الذي انتهك حرمته الغد.

على أن قرار المجلس كان يجب أن يوقعه غوهيي رئيس حكومة الادارة، ولكن أين غوهيي؟ قيل إنه في اللوكسمبورغ، مقر الادارة.

الاستقالة الاجبارية

استفاق غوهيي صباحا ليرى حرس الادارة، يغادرون المقر ليضعوا أنفسهم في تصرف نابليون. هذا في الوقت الذي كانت فيه زوجته قد غادرت المقر لتفطر مع جوزفين. حاول أن يسأل عما يجري فلم يتلق جوابا. دعا زملاءه فلم يستجب إلا مولان. وكان سييس وروجي دوكو، قد ذهبا إلى التويلري ليقدما استقالتهما. أما بارّا فقد أجاب بأنه يستحم.

قرر غوهيي ومولان أن يذهبا إلى التويلري، فوجدا هناك كل الوزراء وسييس ودوكو. وقد وضع غوهيي ختم الادارة في تصرف نابليون، وقد خيل إليه أن الحركة لا تهدف إلا إلى إقالة بارّا، ثم يعود كل شيء إلى حاله السابقة.

وحين طلب إليه أن يستقيل رفض، فقد أقسم حين تسلم منصبه على الحفاظ على الجمهورية، والدستور، فكيف يتخلى عن واجبه؟

حمل مع مولان إلى اللوكسمبورغ، وفرضت عليهما حراسة مشددة، بحرس تحت إمرة مورو. في هذا الوقت كان بارا ينتظر أن يقبل نابليون لزيارته، كما وعد. ولما طال الانتظار أرسل سكرتيره إلى التويلري، فلما وصل وجد نابليون يعرض القوات المسلحة. ولمحه هذا فدعاه إليه، وحمله أمام كل الجمهور، مسؤولية كل بؤس الوطن. فعاد بوتو إلى بارا ينبئه بما حدث، فيما أمر نابليون تاليران باعداد نص استقالة بارا. وحين حمل كتاب الاستقالة إلى بارّا، مع وعد بعشرة ملايين، وقع هذا الكتاب دون احتجاج، ودون أن يبدل أية كلمة. ولكنه طلب أن يسمح له بالعيش في مزرعته في غروبوا، بعيدا عن مشاغل السياسية.

وهكذا بدا أن الثامن عشر من برومير، قد أعد إعداداً تاماً.

حشد في سان كلو

بدا أن التخطيط للانقلاب وتنفيذه تما في حذق وبراعة. وهذا خطأ. الواقع أن الخطوة الأولى كانت وحدها الموفقة، وهي نقل المجلس إلى سان كلو. ذلك أن معدي الانقلاب، لم يكونوا يعلمون ما سيفعلون، بعد نجاح الخطوة الأولى.

التاسع عشر من برومير، السنة الثامنة، تدفق النواب في كل أنواع وسائط النقل، وبعض قوات التنين والقناصة، وبعض الفضوليين.

لم تكن القاعة لتتسع لمجلس «القدماء» فكيف بمجلس الخمسمائة؟ لقد تجمعوا على مسطح القصر في سان كلو، وراحت المناقشات تعلو حينا، وتنخفض حينا، حسب حرارة الموضوع. وكان بعضهم يشرب، كأنما ليهرب مما يشعر به من توقع، أو خوف، أو أسى. وكان السؤال الأثير لدى الجميع: إلى أين سيمضي نابليون؟ وكان بعض الفضوليين يسألون الجند: ما الذي يحدث؟ فيجيب بعضهم إجابات مبهمة، بينما يرد آخرون: إن نابليون سيخلصنا من التافهين، وسيعيد مجد فرنسا.

قدم سييس، وتاليران، ودوكو، ولاغارد سكرتير الادارة. وفي الوقت ذاته كانت المقاعد تصف في قاعة البرتقال إذ لم تكن القاعة الأولى كافية للحضور.

فجأة، حدثت ضجة: فقد دخلت عربة يحرسها الجند، وضباط على خيولهم، وترجل الضباط ثم نزل نابليون من العربة، فتعالت هتافات: يعيش نابليون. فيما تعالت، من جانب آخر، هتافات: عاش الدستور.

مضى نابليون بخطوات واسعة عبر المنبسط أمام القصر، ودخله يتبعه عدد من الضباط.

انقضت ساعات قبل الظهر بطيئة، رغم أن الكثيرين وجدوا السبيل إلى ازجاء الوقت بالجدل والشرب. وقد ثمل بعضهم، فصاح أحدهم: «أرجوكم، هل رأسي ما يزال بين كتفي؟».

الساعة الواحدة بعد الظهر، جلس النواب على المقاعد التي أعدت في قاعة البرتقال، وجلس لوسيان نابليون، على مقعد الرئاسة، في مكان مشرف على المجتمعين، لم يكن عمر لوسيان أكثر من أربعة وعشرين عاما، ولكنه كان أكثر اخوته ذكاء بعد نابليون.

افتتاح الجلسة

افتتح لوسيان الجلسة. ولكن الضجة لم تهدأ. طلب غودان الكلام، حسب الخطة التي وضعها مخططو الانقلاب، فأعطاه لوسيان الكلام. فاقترح تشكيل لجنة لدرس الأخطار التي تتهدد الجمهورية. ولكن النواب الذين كانت لهم تجربتهم، والذين قاتلوا وسجنوا وعذبوا، قطعوا عليه الكلام، فقد أدركوا إلى أين يقود اقتراحه! وتعالت الصرخات:

— نرفض الدكتاتورية.
— ليسقط كل ديكتاتور.
— نحن هنا أحرار، ولا تخيفنا الحراب.

حاول غودان الاستمرار، ولكنه لم يستطع. وكان عليه ترك المنبر. وفيما حاول البعض التهدئة استمر الآخرون في تعنتهم. وسيطر اليساريون على الخمسمائة. وبدأ اليعاقبة، بعد نزول غودان عن المنبر يهاجمون لوسيان، وتحولت هجماتهم إلى تهديدات، ولكنه حافظ على هدوئه وصفاء ذهنه. وواجه الهجمة بالدعوة إلى الهدوء. فهجم اليعاقبة وطوقوا مقعده هاتفين: الدستور أو الموت. وطالب ديلبرل بصوته الجهوري الذي غطى على كل الأصوات، بأن يقسم كل نائب، من جديد، على الحفاظ على الدستور. فتعالى التصفيق في المكان.

أدرك لوسيان بذكائه، أن القسم الافرادي وسيلة لكسب الوقت، فاغتنم المبادرة وطلب من النواب أن يقسم كل منهم على الحفاظ على الدستور. فاصطفوا في صف طويل، وجعل كل واحد يقبل ليقسم.

ولكن ما الذي كان يفعله «القدماء» في تلك اللحظات؟

في بدء جلستهم طرحت أسئلة حول «المؤامرة»، والغاية مما حدث، وأسئلة أخرى في نطاق ذلك. وفجأة صعد لاغارد ليعلن أن أربعة من أصل خمسة مديرين قدموا استقالاتهم، وعلى المجلس اختيار حكومة جديدة؟



□ جوزيفين ترسم القنصل الأول بونابرت

كان القدماء يعلمون أنهم لا حق لهم في الاقدام على هذه الخطوة دون موافقة الخمسمائة. تفاقم الوضع! لقد خيل للكثيرين أن القدماء سيطلبون من نابليون وسييس تولي الأمر. ولكن هؤلاء ترددوا طويلا في اتخاذ قرار. كانوامسؤولين عن الدستور، ولا يريدون التحلل من المسؤولية.

في الطابق الأول، كان نابليون مجتمعا إلى دوكو وسييس، كان ينتظر، وكان قلقا. وبدأ يقتلع بثورا في وجهه لانفعاله، فسال الدم منها. وفي الممرات، وعلى الأدراج، كان قلق الضباط يتصاعد، وصل في تلك اللحظة، الجنرالان أوجيرو وجوردان، ولم يكن نابليون واثقا منهما، وكان القدماء يراوحون في مكانهم.

شعر نابليون أن كل لحظة تضيع بعد ذلك الوقت، تعني الاقتراب من الفشل. كانت الساعة بين الثالثة والنصف، والرابعة. مثل أمام القدماء، تحيط به حاشية صغيرة: شقيقة جوزيف، الجنرال برتيي، وسكرتيره بوريين. ساد الصمت. لم يكن نابليون قد أعد شيئا. تكلم، فلم يفهم أحد ما يريد، ولم يقترح شيئا. وقوبل خطابه بصمت. وترك المكان دون أن يحصل على القرار المنقذ.

يسقط الدكتاتور

وقف صامتا خارج القاعة. ثم قرر الهجوم، فاتجه إلى قاعة البرتقال، ثم دخلها، فيما كان آخر من يقسمون يمين الولاء للدستور، يقتربون من المنصة. كان لوسيان يتوقع دخول رئيس القدماء بالقرار المنقذ. فاذا نابليون يتبعه حرس قليل، وعدد من الجنرالات والضباط.

ترك حاشيته وتقدم من المنصة، فأحاط به النواب من كل صوب. وارتفعت أصوات:

ـــ يسقط الدكتاتور.

ـــ يسقط الطاغية.

ـــ خارج على القانون.

أحاط به اليعاقبة، وشتموه، وأهانوه. وأمسك أحدهم بخناقه، وراح جمعهم يدفعه، ويشده، حتى سقط أرضا، وغشت بصره سحابة حمراء، وأغمي عليه. ووجه إليه دسترم الثمل لكمات على وجهه. في هذه اللحظة اندفع الجند والضباط لانقاذ نابليون. وحملوه وهو يوشك أن يفارق الحياة.

لوسيان يحافظ على رباطة جأشه

استفرد لوسيان. ودقت قبضات على المنصة. وعلت صرخات: خارج على القانون. ولكن لوسيان، بكل رباطة جأشه، وقف هادئا، ففرض بهدوئه الصمت، وابتعاد النواب عن المنصة. قال: لم تكن من حاجة لما حدث هنا. كان الجنرال يريد تقديم أيضاحات لمجلسكم الموقر عما حدث. ولكن أحد النواب صاح:

ـــ لقد سود نابليون صفحة انتصاراته.

وقال آخر: لقد تصرف نابليون كملك.

وتقدم عدد من النواب باقتراحات، معظمها متناقض. ولكن لوسيان تابع كلامه:

ـــ أرى أن الشكوك التي عبرتم عنها، لا تستند إلى أساس. لقد قمتم بعمل غير نظامي، ونسيتم كل الخدمات في سبيل الجمهورية.

وأجاب بعضهم: بل لن ننساها.

وتابع لوسيان: أطالب، قبل اتخاذ أي إجراء استدعاء الجنرال.

ولكن أحدهم صرخ: لا نعترف به.

وقال لوسيان: حين يعود الهدوء إلى هذا المكان، ويزول سوء التفاهم الذي حدث، ستجدون أنفسكم مقتنعين بانصاف من يجب إنصافه.

ولكن اليعاقبة تعددت صرخاتهم منددة بالجنرال. فحاول لوسيان عبثاً الكلام، ولكنه أخفق. عندئذ خلع القلنسوة، وثوب الرئاسة، والمنديل المطرز بالذهب، بحركة مسرحية، ووضعها على المنصفة وهتف:

ـــ لقد أعياني أن تستمعوا إلي. لذلك أطرح شارات الرئاسة التي منحني إياها الشعب.

فوجيء النواب بالموقف. وتساءل المعتدلون: هل يرجع المتطرفون عن غيهم، بينما عاد اليعاقبة إلى الصراخ: خارج على القانون.

قبل قليل، كان لوسيان قد همس في أذن الجنرال فريجفي: قبل مرور عشر دقائق يجب فض الاجتماع.

ترك فريجفي المكان، ثم عاد مع عشرة جنود، وسار إلى المنصة، وحملوا لوسيان معهم.

على قرع الطبول

وجد لوسيان حصاناً ينتظره، فاعتلى صهوته. وفي هذا الوقت كان نابليون قد قرر استخدام القوة. وكان الجند على أتم استعداد لمؤازرته. وقد فوجئوا بظهور لوسيان إلى جانب أخيه. وما لبث أن أعلن: أنا رئيس مجلس الخمسمائة، أعلن أن غالبية المجلس تخضع لارهاب بعض من يطوقون المنصة، ويهددون بسلاحهم رفاقهم بالموت، ويصوتون على أمور لا يحق لهم أن يصوتوا عليها. لذلك أكلفكم بانقاذ الأكثرية. فإذا أصر الآخرون على البقاء فإني أطلب منكم طردهم بالقوة، لأنهم لصوص لا يمثلون إرادة الشعب.

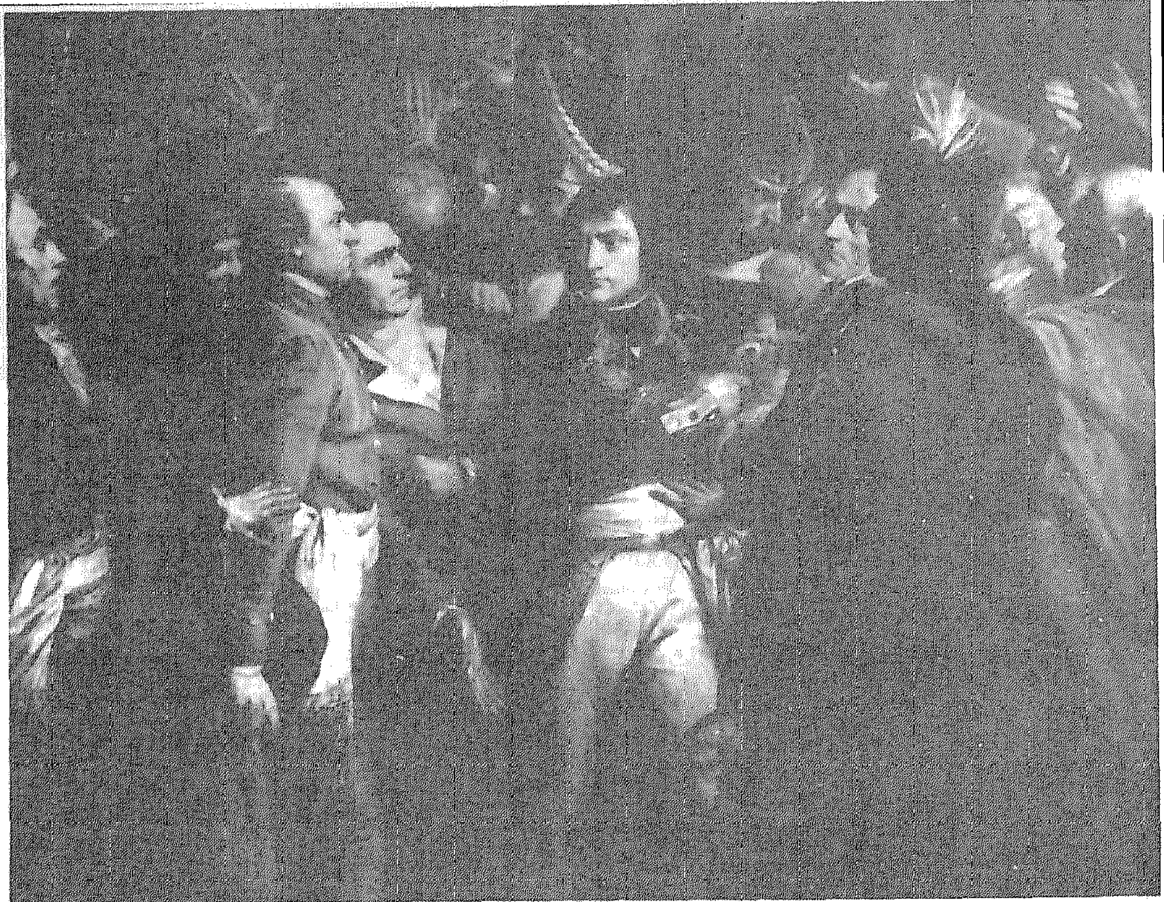
واستل لوسيان سيف نابليون ووضع رأسه على صدر أخيه وصاح بحركة مسرحية: «سأمزق هذا الصدر إذا خطر لصاحبه أن يكون طاغية».

استل الضباط سيوفهم. ووضع الجنود



□ لوسيان بونابرت.

□ بونابرت بين نواب مجلس الخمسمائة.





□ بونابرت بين لوبران وكامباسيري، عند إقامة مجلس الدولة في اللوكسمبورغ. (٢٥ أيلول).

الحراب في بنادقهم، وتسلم مورا ولوكلرك زمام القيادة، وتعالى قرع الطبول، وارتفع صوت مورا:

ـ إلى الأمام.

اجتاح الجند مكان الاجتماع، بينما الضباط يصيحون:

ـ أيها المواطنون، حل مجلسكم!

فيما كان مورا يصيح:

أخرجوا هؤلاء خارجا!

وراح النواب يقفزون من النوافذ، وأثوابهم الأرجوانية تطير خلفهم، في فوضى عجيبة. لقد هربوا وتبعثروا يتولاهم الرعب.

وهكذا نفذ الانقلاب.

المساء، اجتمع عدد من النواب (يقارب الثلاثين) وصوتوا على قنصلية مؤقتة.

الثالثة صباحاً كان نابليون على طريق باريس، يتحدث إلى بوريين:

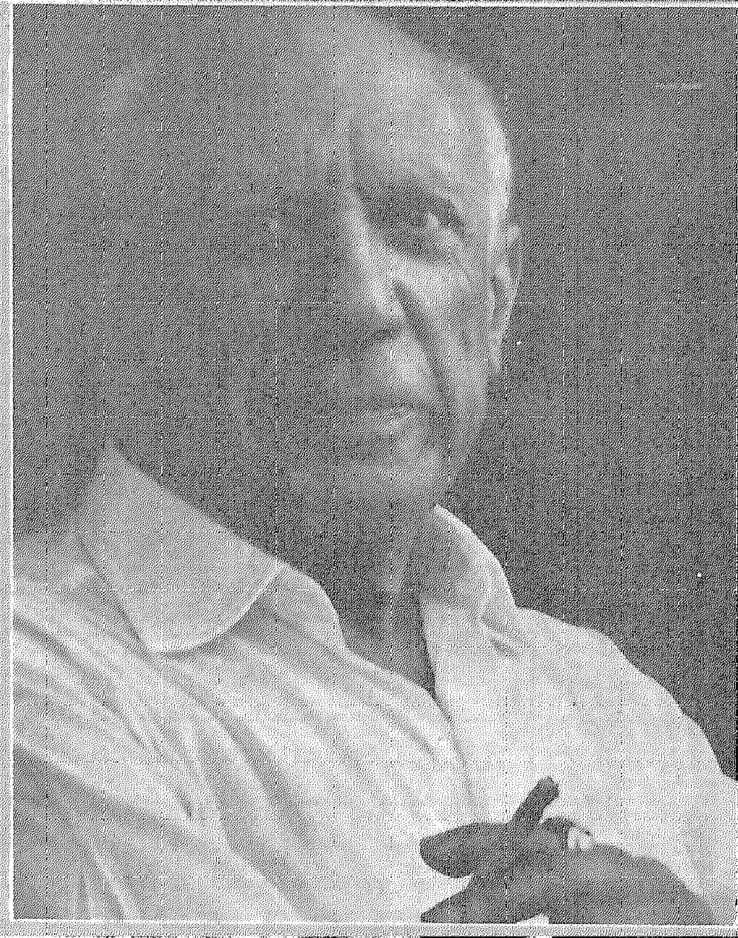
ـ يبدو أني لم أحسن القول في مجلس القدماء.

ـ لا بأس عليك يا جنرال.

ـ إني أفضل التحدث إلى الجند، على كل حال. ●

بيكاسو
كما عرفته...

موريس ريمز
من «الأكاديمية الفرنسية»



علاقة بيكاسو بلوحاته حالة عشق ووله

تعريب
د. سامي زكي

كيف كانت علاقة بيكاسو بلوحاته؟ هل كان ينظر إليها جميعا نظرة واحدة، أشبه بنظرة الأب إلى أبنائه؟ كيف كان يحفظها ويرعاها؟ ثم هل كانت نظرته إلى لوحات كبار الفنانين، نظرته عينها إلى لوحاته؟ أين كان يحتفظ بكل هذا العدد الكبير من اللوحات التي احتفظ بها حتى آخر حياته؟



ولد بيكاسو منذ أكثر من مائة عام (٢٥ تشرين الأول عام ١٨٨١)، في ملقة في اسبانيا. كان أبوه أستاذ رسم، وكان يرسم لوحات لتزيين جدران البيوت، وكان يعهد إلى ابنه بابلو باكمال بعض لوحات وضع خطوطها الأساسية. ولكن بابلو ما لبث أن بدأ يرسم لوحاته الخاصة.

في التاسعة عشرة انتقل إلى باريس، وبعد ست سنوات استقر فيها نهائيا، وفيها توفي، في موجان الثامن من نيسان ١٩٧٣.

بعض الناس يتميزون بفضول خاص، كل ما يرونه يسترعيهم، ويستأثر بتفكيرهم، أحياناً، إلى زمن، رغم أنك تكاد لا ترى فيه ما يغري النظر. كان أحيانا، يستبد به بريق حصاة، او خضرة ورقة عشب، أو زهرة غير الزهور، او لون ما في أفق أو سماء او فضاء. ولكنه كان يغريه الجمال حيث كان، سواء كان في الانسان أو الطبيعة أو الأشياء. على أن مقاييس الجمال عند بيكاسو، غيرها عند الآخرين.

خذ مثلا، ذوقه في لوحات كبار الفنانين، ظل زمنا طويلا يحتفظ بلوحات دوانيي روسو، ورونوار، ولكنه كان أبعد من أن يستسلم للانتقائية، أو للتقديس الأعمى. ولم يكن يعرف شيئا عن لعبة جامعي اللوحات المادية. بل كان يكره أن يتعرف إلى هذه اللعبة. كان يشتري اللوحة حين تعجبه، ليتأملها، ويستوعب جمالها، ويفرح ذلك الفرح الداخلي الفني كلما نظر إليها. أما ما عدا ذلك فلم يكن يعنيه، في كثير أو قليل. وإذا عدت إلى مرحلته «الحمراء» (١٩٢٠ ـــ ١٩٢٤) أدركت سبب ميله إلى لوحات رونوار الضخمة. كان يعتبر رونوار الأستاذ، ولكنه بعد مرحلة من الزمن، شعر أنه انفصل عنه فنيا، ولم تعد تلك اللوحات الكبيرة تسترعيه. فلماذا يحتفظ بها، وقد استنفد حتى عصارتها. لقد أرسل كل تلك اللوحات إلى غرفة استأجرها في قبو أحد المصارف، وبقيت هناك حتى وفاته.

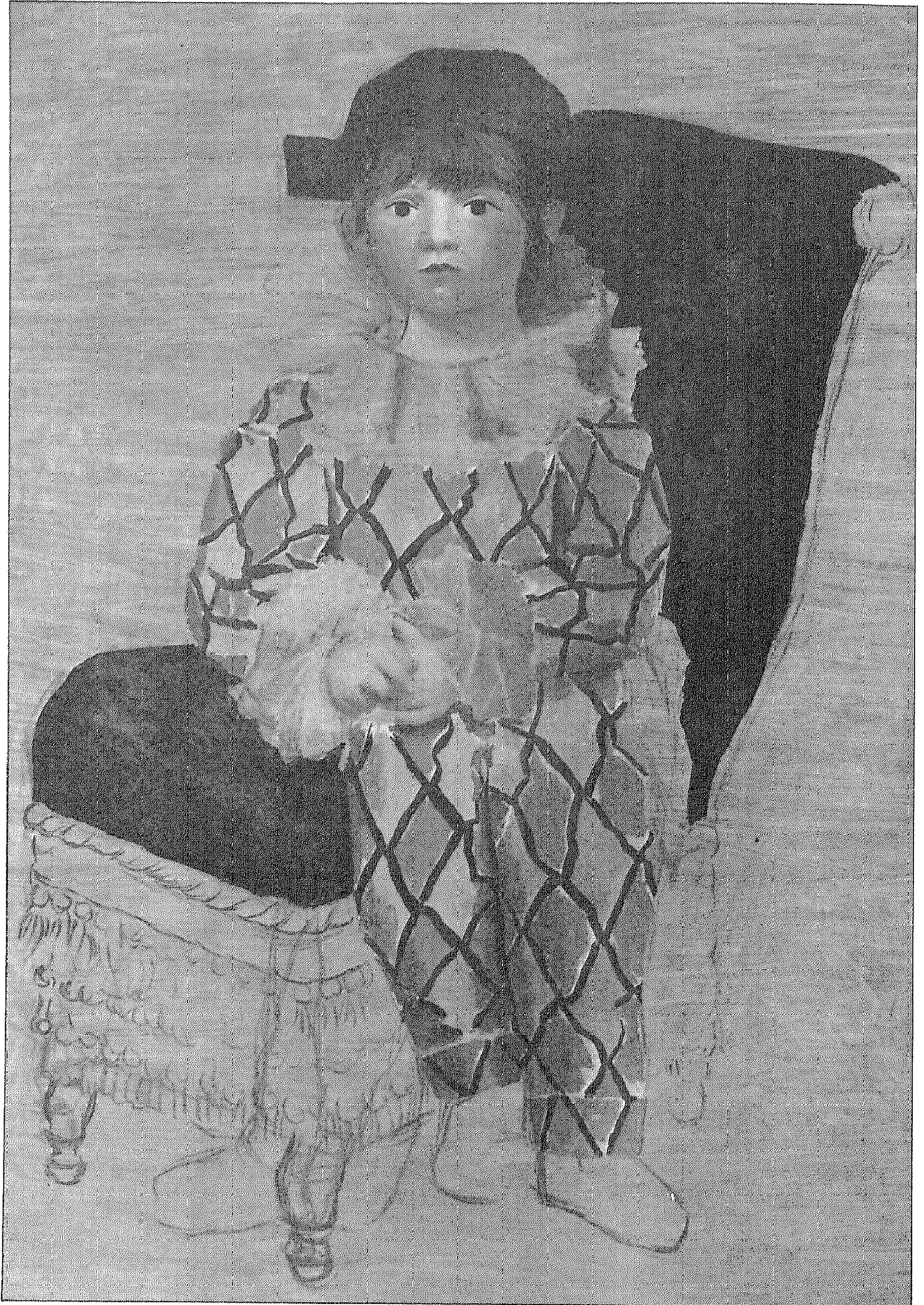
الحق أن بيكاسو كان يحب لوحاته الخاصة، أكثر من حبه أية لوحة أخرى. كان يعتبرها مثل أبنائه. ولم يكن يستطيع أن يحتفظ بها في مكان بعيد عنه. فمكان الأطفال في بيوت ذويها. كان يبيع منها أحيانا، ولكن على الرغم منه. ولم يكن



□ بيكاسو في محترفه في «كي دي غران اوغوستان» خلال حرب (١٩٣٩ ـــ ١٩٤٥). حيث كان يستضيف اصدقاءه ريفردي، كوكتو، براساي.. على الجدران لوحات لبيكاسو.



□ اللوح الخشبي الذي كان يمزج عليه الالوان في محترف كان، في الستينات.



□ الفتى «بول» بلباس «الارلكان» من مجموعة «بيكاسو»



□ محترف كان. على منصة الرسم دراسة عن «آنسات افينيون».

تعلقه باللوحات المكتملة فحسب، بل حتى بتلك المشاريع التي خطها بقلم الرصاص، أو بقلم الحبر، أو بالأكواريل، أو الغواش.

كانت لوحاته موزعة في كل مكان من بيته، حتى لتحسب أنها عوائق تعوق تنقله بين الغرف وعبرها. بل تشكل خطرا خارجيا عليه نفسه، من لص لوحات، أو طامع في ثروة، ولكنه كان يحب دائما أن يظل محاطا بلوحاته، وكأن وجودها حوله يشعره بالأمان، وذلك التعاطف الأنساني الحميم.

مع ذلك، إذا أتيح لك أن تدخل «كليفورنيا» ــ وهذا اسم بيته في كان ــ وتنحدر إلى مغارة «علي بابا»، ألفيت كل شيء مرتبا منظما، كما لو كان ثمة مكلفون بالعناية باللوحات. ولولا مسحة خفيفة من غبار لحسبت أن المكلفين يقومون يوميا بالحفاظ على «طمأنينة» اللوحات.

غير أن بيكاسو اضطر إلى ترك ذلك البيت الذي أحب، بعد أن اشترت إحدى الشركات البناء، لتقيم مكانه بناء ضخما. وفقد بيكاسو ذلك المنظر المطل على خليج كان، المنظر الذي كان يعشقه عشقا.

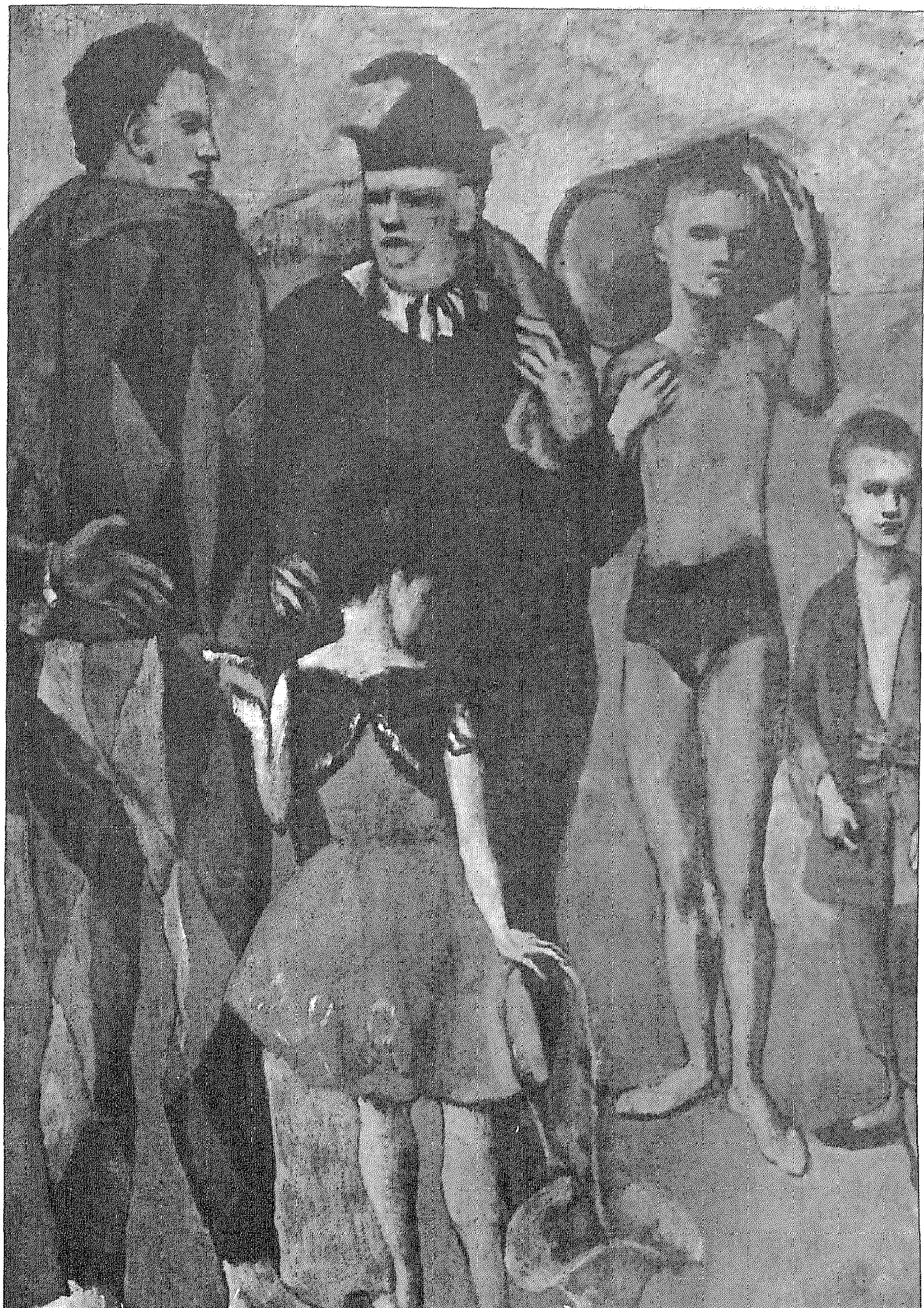
حين غادر بيكاسو البيت، ترك كل شيء في مكانه، ورفض أن يحمل معه لوحاته التي تعتبر تحفا فنية، من المرحلة الزرقاء، والمرحلة التكعيبية، ومحفوراته، بل حتى مطبعته التي كان يستعين بها في الحفر، وعشرات الحقائب التي كانت تضم ثيابه منذ كان شاباً، وكان من عادته أن يحملها معه إلى حيث ذهب.

هذا الانسان الذي ظل يجر ماضيه وراءه، من مرحلة إلى مرحلة، قرر فجأة أن يتخلص من شهوده، مقتنعا أن الماضي لا يقاس بالوزن، وإنما بالبصمات العميقة.

وتشعر بفضوله من خلال علاقاته بالآخرين، وخاصة الرسائل. كانت مائة منها، تقريبا، ترده كل يوم. وكانت الفرص تسنح له أحياناً بفضها وقراءتها. فكان يقص أطراف مغلفاتها بعناية فائقة، ويرسم على الغلافات شكل نظارتين، فاذا انتهى من ذلك، جمع كل ما قرأه أو تصفحه، في



□ بيكاسو بريشته «متحف فيلادلفيا للفنون»



□ العائلة ــ صالة العرض الوطنية ــ واشنطن

رزمة واحدة، وربطها بشريط، وأحالها على الحفظ. ولكنه لم يجب يوما على أية رسالة. كان بعض هذه الرسائل يرجو موعدا، وبعضها يتحدث عن أبناء يرسمون على طريقة بيكاسو، وبعضها يحمل عواطف نساء تعشقن الرسام دون أن تلقينه... ويظل بيكاسو صامتا.

وترد على بيكاسو نماذج من رسوم، رسمها هواة، ورسامون، يؤكد أصحابها أنهم من مدرسة الفنان. يبتسم، يضحك أحيانا، ولكنه لا يجيب.

كل هذه الآلاف من الرسائل والرسوم، وجدت في مغارة «علي بابا» في دارته «كاليفورنيا».

على أن أهم من كل ذلك، أن بيكاسو لم «يتورط» في الرغبة في تجميع المال. يمكن القول أنه كان مرتاحا ماديا منذ ١٩٠٧. لذلك لم يكن يعنى بالمال كثيرا. فلماذا المال، ولو شاء، عندما تدعو الحاجة، لوقع على ورقة أو صحن، فاشتراها أي غني بمال كثير.

كان بعض محبي فنه، يحاولون شراء بعض لوحاته، كان يرفض بحث الأمر، ويحيلهم على التاجر الذي يعنى بأمر بيع لوحاته. وذلك حتى يتجنب الخلط بين الفن والمال.

بل إن بيكاسو، الذي باع بعض لوحات تعود إلى بداية حياته الفنية، كان يشتري سرا تلك اللوحات، بواسطة بعض أصدقائه، ويعيدها إلى مغارته الفنية.

ولم يكن يسجل على لوحاته تاريخ السنة التي اكتملت فيها، فحسب، وإنما كان يذكر أحياناً، الساعة التي ولدت فيها.

وكانت رسومه ولوحاته ومحفوراته وتماثيله، موزعة في المغارة، وفي الغرف، ويحتفظ بالمفاتيح، في علاقة لم تفارقه أبدا. وكان يعرف، بالتحديد، في أي مكان توجد اللوحة كذا، أو التخطيط الفلاني، أو المحفورة، أو التمثال... بينما كان ينسى أحيانا أين ترك لوحة لأحد الفنانين الكبار.

وكان بيكاسو يرفض أن يترك وصية. وكان يقول: «أعتقد، في ما أعلم، أن معظم الفنانين لم يتركوا وصية. فهذا تيتيان، وفيلاسكيز، وغيرهم كثير، لم يتركوا وصية. فلندع لورثتنا تدبر شأن الارث بأنفسهم».

●



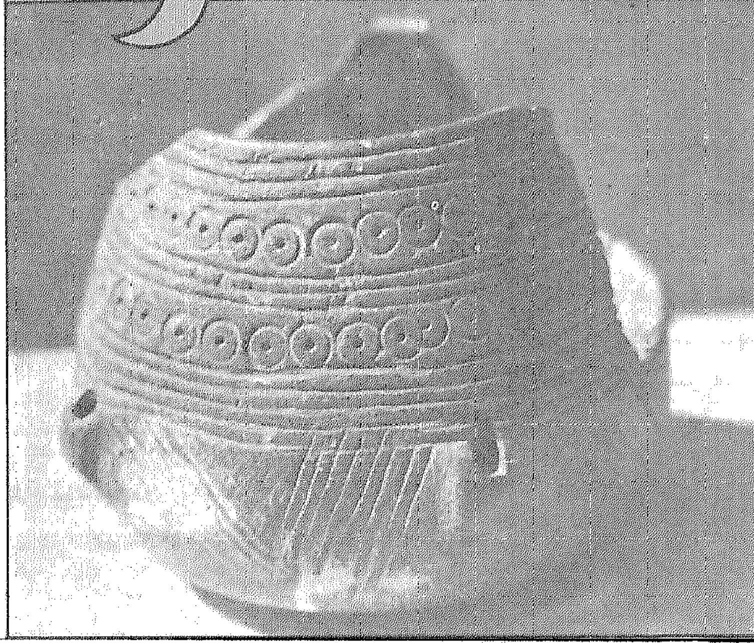
□ جانب من محترفه في كان. على الجدار لوحتان لزوجته جاكلين.



□ **صورة شخصية، رسمها لنفسه، وكانما لتحرس الرسائل المبعثرة على ارض المحترف.**

التنقيب في موقع قطارة

قسم التوثيق والأبحاث



وعاء حجر ستيتايت مزين بزخارف هندسية عملت بطريقة التحزيز لهذا الوعاء أربعة مقابض مثقوبة بشكل عمودي (الألف الثالث ق. م.).

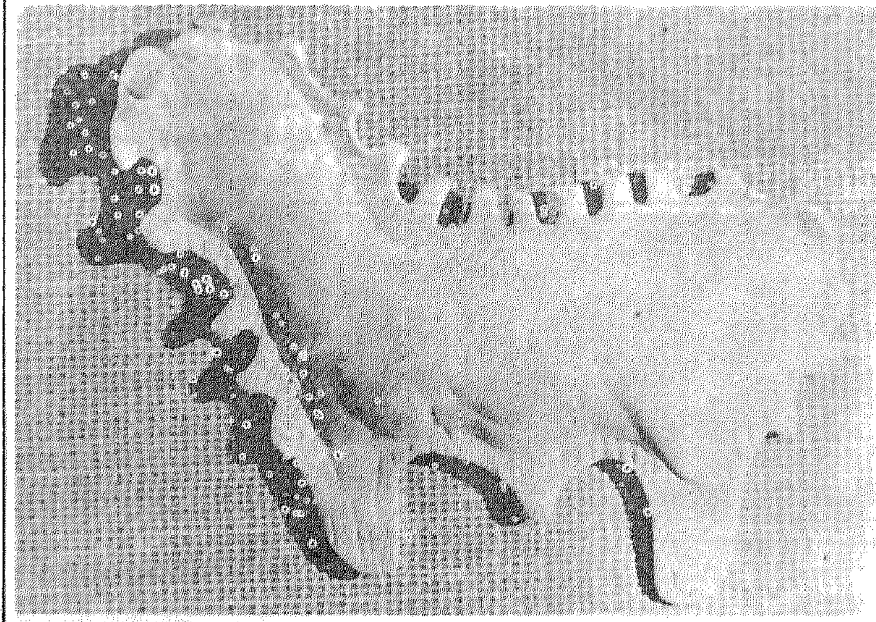


تقع منطقة قطارة على مسافة خمسة كيلومترات غرب منطقة هيلي الأثرية ضمن واحة البريمي المعروفة وتعتبر امتدادا لها. وفي هذه المنطقة تكثر المزارع والبساتين إضافة إلى الدور السكنية العديدة. أثناء عملية حرث التربة وتوسيع رقعة إحدى المزارع المنتشرة في المنطقة، عثر على لقى أثرية هامة تمثل قطعا لسيوف نحاسية أو برونزية وأواني حجرية وفخارية كاملة وعددا كبيرا من أدوات الزينة كالخرز والأساور. ولما علمت دائرة الآثار والسياحة بذلك، بادرت وعلى الفور بوضع يدها على الموقع حيث أجرت تنقيبات سريعة هدفها التعرف على طبيعة الموقع وتاريخه. وقد توقفت أعمال التنقيب بعد فترة قصيرة لحلول موسم الصيف، ثم استؤنف مرة أخرى في موسم ٧٤/٧٥ ونستعرض فيما يلي وصفا للموقع مع ذكر نتائج التنقيب:

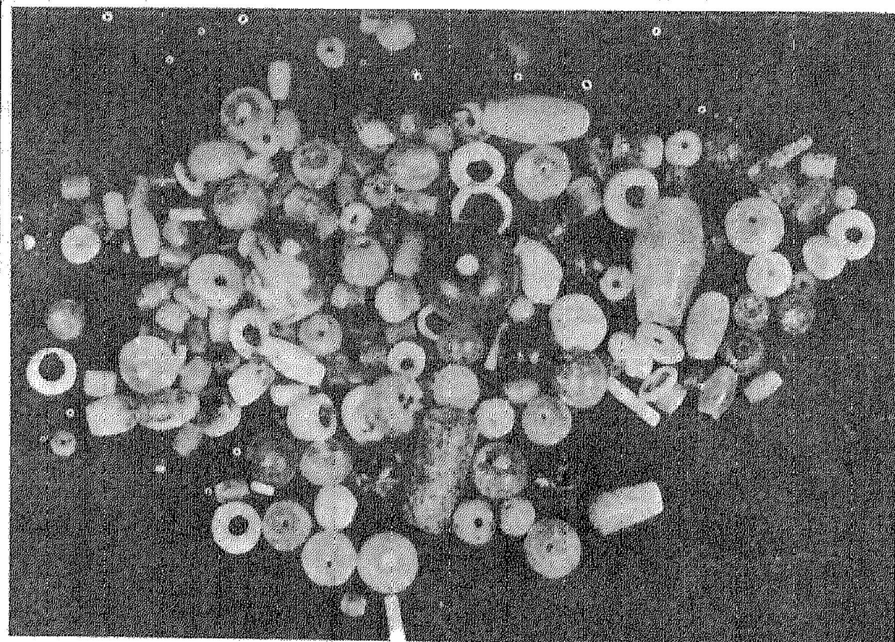
موقع قطارة عبارة عن تل بيضوي الشكل، ارتفاعه لا يزيد عن ثلاثة أمتار، جرت أعمال الحفر في أحد سفوحه ضمن منطقة طولها ٢١ مترا وعرضها ٧ أمتار. ورغم تلف معظم أجزاء هذا السفح نتيجة لحفر الآلات الميكانيكية فقد كشف عن لقى أثرية عديدة مبعثرة بين الأنقاض التي خلفتها هذه الآلات. وتشمل هذه اللقى عددا كبيرا من السيوف النحاسية أو البرونزية ومجموعة كبيرة من أدوات الزينة كخرز العقيق والكريستان والحجر والعظم، وهناك نوع آخر من الخرز عمل من حجر طباشيري بأشكال كروية أو بصلية أو برميلية غلف فيما بعد بصفائح رقيقة من الذهب، إذ يبدو أن خرز

الذهب هذه كانت تكون قلادة ذهبية واحدة. أما الأواني الحجرية والفخارية فقد عثر على قسم منها بأشكال كاملة في حين عثر على قسم من أواني أخرى مهشمة. تمتاز هذه الأواني بكونها منقوشة بأشكال هندسية محززة على غرار أواني هيلي الحجرية. ومن أهم المكتشفات قطعة فريدة تمثل أداة للزينة أو دلاية من الذهب عملت بشكل ثور. مثل هذا الثور بشكل بارز حيث أجاد الفنان في إبراز عضلاته القوية ويظهر في الجانب المقعر من هذه القطعة ثقبان كانا يستعملان للتعليق.

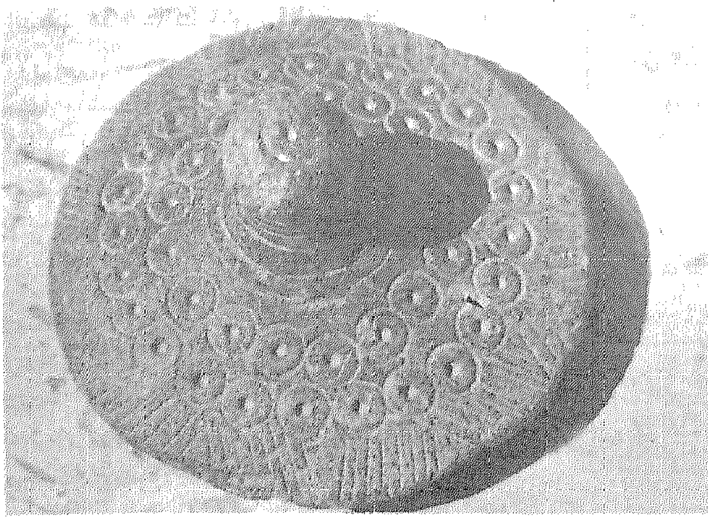
ونتيجة للخراب الكبير الذي أصاب هذا الجزء من الموقع فلم يعثر على أية بقايا معمارية عدا بعض الأحجار المتناثرة. لذلك فتح جـزء أقل ضررا حيث ظهرت فيه أسس حجرية من ثلاثة صفوف تشكل غرفة مستطيلة الشكل (شرق ــ غرب) طولها المكشوف لحد الآن يبلغ ٩,٧٠م



□ دلاية من الذهب بشكل ثور من موقع قطارة ــ العين. (الألف الثالث ق. م).

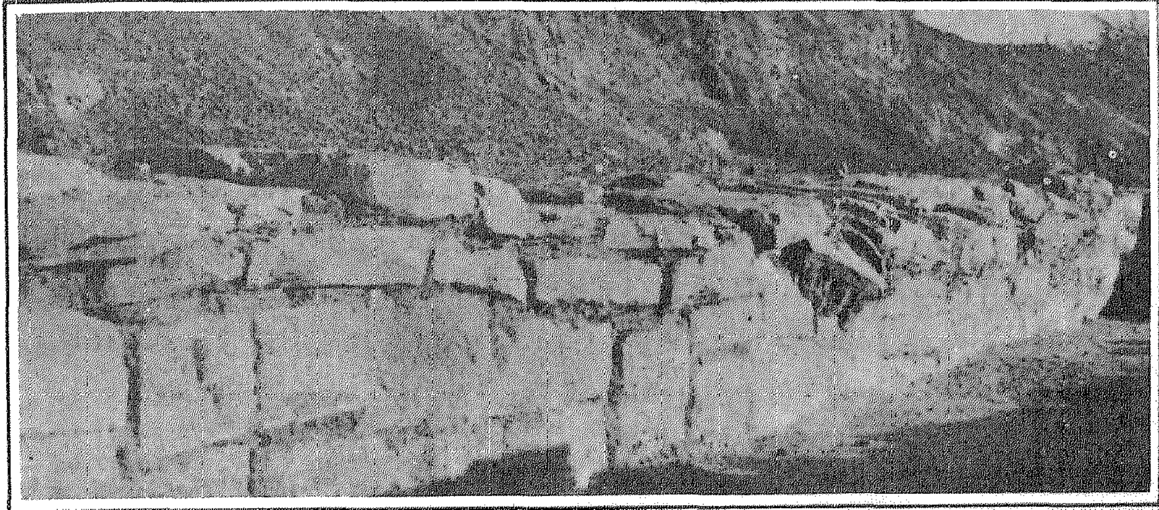


□ اشكال مختلفة من الخرز المكتشف في قطاره.



□ غطاء ستيتايت مزين بصفين من الدوائر وحزوز متجاورة من موقع قطارة — العين (الألف الثالث ق. م).

□ احد جدران غرفة قطارة — العين، الأحجار السفلى منحوتة ومنقولة من مدافن هيلي على الأغلب.



وعرضها ٢ متر. أما جدرانها فلم يتبق منها سوى الأجزاء السفلى بارتفاع ٥٠ سنتمترا ولهذه الغرفة مدخل عرضه ٨٥ سنتمترا يتكون من حجرتين متقابلتين قطعتا بشكل جيد.

أما المكتشفات الأثرية التي عثر عليها داخل هذه الغرفة فهي قطع من أسلحة برونزية مهشمة وسوار من البرونز وجرة فخارية صغيرة ومجموعة من الخرز المعمول بأشكال ومواد مختلفة واناء فخاري أسود اللون إضافة إلى جمجمة وبقايا عظام آدمية وجدت مبعثرة على الأرضية.

ماذا يمثل هذا البناء؟ لا يمكن حاليا الجزم في ما إذا كان هذا البناء يمثل مدفنا أم لا، وذلك لعدم اكتمال التنقيب فيه، وإذا افترضنا بأنه مدفن فسيكون نوعا جديدا من مدافن غير معروفة سابقا. إن كل ما يمكن قوله في الوقت الحاضر وجود تشابه في الأحجار المستعملة في بناء الأجزاء السفلى من غرفة قطاره مع أحجار مدافن هيلي، حيث استعملت في كلا الموقعين الأحجار المهذبة والمقطوعة بشكل جيد. وربما تكون أحجار غرفة قطاره منقولة من مدافن هيلي الحجرية وإن صح ذلك فلابد أن تكون أبنية قطاره أحدث بقليل من مدافن هيلي.

أما من حيث المكتشفات فهي الأخرى تشابه مكتشفات هيلي لحد كبير فأواني الحجر (الستيتايت) المكتشفة في قطارة لم تكن غريبة لكونها معروفة في مدافن هيلي التي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ٢٧٠٠ — ٢٥٠٠ق. م.

●

النص الرسمي الكامل للاتفاق اللبناني - الإسرائيلي

فيما يلي النص الرسمي للاتفاق بين لبنان واسرائيل الذي جرى توقيعه يوم الثلاثاء في ١٧ أيار ١٩٨٣ كما وزع على النواب.

اتفاق بين حكومة الجمهورية اللبنانية وحكومة دولة اسرائيل.

إن حكومة جمهورية لبنان وحكومة دولة اسرائيل.

إذ تستذكر أن أهمية وتعزيز السلام الدولي المرتكز على الحرية والمساواة والعدالة واحترام حقوق الإنسان الأساسية.

انطلاقاً من إيمانها بأهداف شرعة الامم المتحدة ومبادئها وإقرارا بحقهماوواجبهما في العيش بسلام مع جميع الدول وبعضها مع البعض داخل حدود آمنة ومعترف بها.

اتفاقا منهما على إعلان إنهاء حال الحرب بينهما.

رغبة منهما في اقامة أمن دائم لبلديهما وفي تلافي التهديد واستعمال القوة في ما بينهما.

رغبة منهما في انشاء علاقاتهما المتبادلة بالطريقة المنصوص عليها في هذا الاتفاق.

وبعدما زودتا مندوبيهما المفوضين الموقعين أدناه بصلاحيات مطلقة لتوقيع هذا الاتفاق، بحضور ممثل الولايات المتحدة الأميركية.

اتفقتا على الأحكام الآتية:

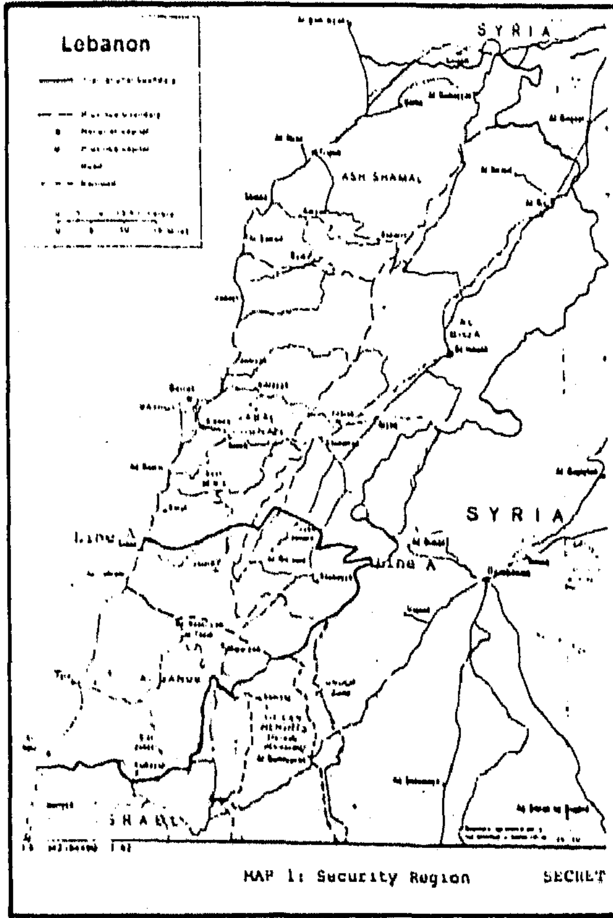
المادة ١

١ ــ يتعهد كل من الفريقين احترام سيادة الفريق الآخر واستقلاله السياسي وسلامة اراضيه. وهما يعتبران الحدود الدولية القائمة بين لبنان واسرائيل غير قابلة للانتهاك.

٢ ــ يؤكد الفريقان إن حال الحرب بين لبنان واسرائيل انهيت ولم تعد قائمة.

٣ ــ عملا بأحكام الفقرتين الأولى والثانية، تتعهد اسرائيل أن تسحب قواتها المسلحة من لبنان وفقا للملحق هذا الاتفاق.

(*) نشر في جريدة النهار ــ الاثنين ١٦/٥/١٩٨٣.



□ خريطة المنطقة الامنية كما وردت في ملحق الاتفاق.

المادة ٢

يتعهد الفريقان، مسترشدين بمبادىء ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي، تسوية خلافاتهما بالوسائل السلمية وبطريقة تؤدي إلى تعزيز العدالة والسلام والأمن الدوليين.

المادة ٣

في سبيل توفير الحد الاقصى من الامن للبنان واسرائيل، يقيم الفريقان ويطبقان ترتيبات امنية، بما في ذلك انشاء منطقة امنية، وفقا لما هو منصوص عليه في ملحق هذا الاتفاق.

المادة ٤

١ ــ لا تستعمل اراضي أي من الفريقين قاعدة لنشاط عدائي او ارهابي ضد الفريق الآخر، او ضد شعبه.

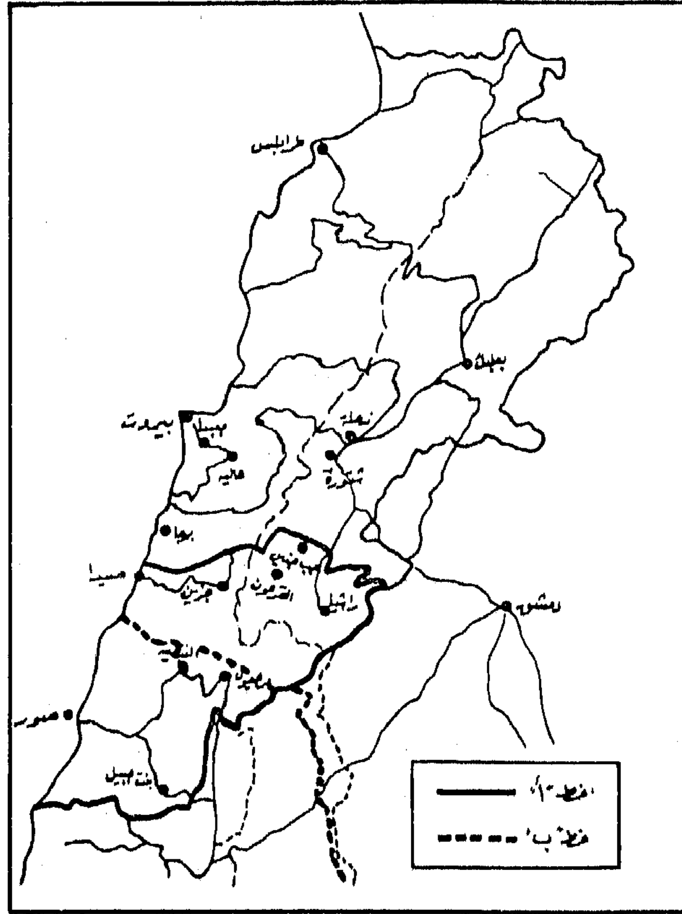
٢ ــ يحول كل فريق دون وجود او انشاء قوات غير نظامية او عصابات مسلحة، او منظمات او قواعد أو مكاتب أو هيكليات تشمل اهدافها او غاياتها الاغارة على أراضي الفريق الآخر او القيام بأي عمل ارهابي داخل هذه الاراضي، أو أي نشاط يهدف إلى أن يهدد او يعرض للخطر امن الفريق الآخر أو سلامة سكانه. لهذه الغاية، تصبح لاغية وغير ملزمة جميع الاتفاقات والترتيبات التي تخول، ضمن اراضي اي من الفريقين، وجود وعمل عناصر معادية للفريق الآخر.

٣ ــ مع الاحتفاظ بحقه الطبيعي في الدفاع عن النفس وفقا للقانون الدولي، يمتنع كل من الفريقين:

(أ) عن القيام أو الحث أو المساعدة او الاشتراك في تهديدات أو أعمال حربية أو هدامة، أو تحريضية أو عدوانية ضد الفريق الآخر، أو ضد سكانه أو ممتلكاته، سواء داخل اراضيه أو انطلاقا منها، أو داخل اراضي الفريق الآخر.

(ب) عن استعمال أراضي الفريق الآخر لشن هجوم عسكري ضد اراضي دولة ثالثة.

(ج) عن التدخل في الشؤون الداخلية أو الخارجية للفريق الآخر.



□ **المنطقة الامنية.. مترجمة.**

٤ ــ يتعهد كل من الفريقين اتخاذ التدابير الوقائية والاجراءات القانونية في حق الاشخاص والمجموعات التي ترتكب أعمالاً مخالفة لأحكام هذه المادة.

المادة ٥

انسجاماً منهما مع انهاء حال الحرب يمتنع كل فريق، في إطار انظمته الدستورية، عن اي شكل من الدعاية المعادية للفريق الآخر.

المادة ٦

يحول كل فريق دون أن تدخل ارضه او تنتشر فيها او تعبرها، بما في ذلك مجاله الجوي وبحره الاقليمي، في ما عدا حق العبور البري وفقاً للقانون الدولي، قوات عسكرية او معدات او تجهيزات عسكرية لاية دولة معادية للفريق الآخر.

المادة ٧

باستثناء ما هو منصوص عليه في هذا الاتفاق، لا يكون هناك ما يحول دون أن يجري بناء على طلب الحكومة اللبنانية وموافقتها، نشر قوات دولية على الأرض اللبنانية، لمؤازرة الحكومة اللبنانية في تثبيت سلطتها. ويتم اختيار الدول الجديدة التي تساهم في المستقبل في هذه القوات من بين الدول التي تقيم علاقات ديبلوماسية مع الفريقين.

المادة ٨

١ ــ أ ــ حالما يسري مفعول الاتفاق، ينشىء الفريقان لجنة اتصال مشتركة تبدأ ممارسة وظائفها من وقت انشائها وتكون للولايات المتحدة فيها صفة المشارك. يعهد إلى هذه اللجنة في الاشراف على تنفيذ هذا الاتفاق في جميع جوانبه. وفي الشؤون التي تدخل فيها الترتيبات الأمنية، تعالج هذه اللجنة المسائل غير المفصول فيها والمحالة عليها من قبل لجنة الترتيبات الامنية المنشأة بموجب الفقرة (ج) أدناه. تتخذ اللجنة قراراتها بالاجماع.

ب ــ تهتم لجنة الاتصال المشتركة في صورة متواصلة بتطور العلاقات المتبادلة بين لبنان واسرائيل، بما في ذلك ضبط حركة البضائع والمنتجات والاشخاص، والمواصلات، الخ...

ج — في اطار لجنة الاتصال المشتركة تنشأ لجنة الترتيبات الأمنية. تشكيلها ووظائفها محددة في ملحق هذا الاتفاق.

د — يمكن انشاء لجان فرعية للجنة الاتصال المشتركة في لبنان واسرائيل مداورة.

هـ — تجتمع لجنة الاتصال المشتركة في لبنان واسرائيل مداورة.

و — لكل من الفريقين، إذا رغب في ذلك، وما لم يحصل أي اتفاق على تغيير الوضع القانوني، ان يقيم مكتب اتصال على أرض الفريق الآخر، لأجل القيام بالمهمات المذكورة أعلاه في إطار لجنة الاتصال المشتركة وللمؤازرة في تنفيذ هذا الاتفاق.

ز — يكون على رأس اعضاء كل فريق في لجنة الاتصال المشتركة موظف حكومي كبير.

ح — تكون جميع الشؤون الأخرى المتعلقة بمكاتب الاتصال هذه، وبموظفيها، وكذلك بالموظفين التابعين لأي من الفريقين والموجودين على ارض الفريق الآخر لسبب ذي صلة بتنفيذ هذا الاتفاق، موضوع بروتوكول يجري عقده بين الأفرقاء ضمن لجنة الاتصال المشتركة. في انتظار عقد هذا البروتوكول تعامل مكاتب الاتصال والموظفون المشار إليهم وفقا للأحكام المتصلة بهذا الموضوع الواردة في معاهدة البعثات الخاصة تاريخ ٨ كانون الأول ١٩٦٩، بما فيها الأحكام المتعلقة بالامتيازات والحصانات. ولا يلغي ما سبق أي تحفظات ممكنة للأفرقاء على تلك المعاهدة.

٢ — خلال فترة الستة الأشهر التالية لانسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من لبنان وفقا للمادة الأولى من هذا الاتفاق،وبعد الاعادة المتزامنة لبسط السلطة الحكومية اللبنانية على طول الحدود الدولية بين لبنان واسرائيل، وفي ضوء انهاء حال الحرب، يشرع الفريقان، في اطار لجنة الاتصال المشتركة، في التفاوض، بنية حسنة، بغية التوصل إلى اتفاقات حول حركة السلع والمنتجات والاشخاص، وتنفيذها على أساس غير تمييزي.

المادة ٩

١ — يتخذ كل من الفريقين، في مهلة لا تتعدى عاما واحدا من بدء سريان هذا الاتفاق، جميع الاجراءات اللازمة لالغاء المعاهدات والقوانين والأنظمة التي تعتبر متعارضة مع هذا الاتفاق، وذلك وفقا للاصول الدستورية العائدة إلى كل من الفريقين وتقيدا بها.

٢ — يتعهد الفريقان عدم تنفيذ أي التزامات راهنة تتعارض مع هذا الاتفاق، كذلك عدم الدخول في اي التزام وعدم تبني قوانين او انظمة تتعارض مع هذا الاتفاق.

المادة ١٠

١ — يتم إبرام هذا الاتفاق من قبل الفريقين طبقا للأصول الدستورية لدى كل منهما، ويسري مفعولها من تاريخ تبادل وثائق الابرام، وتحل محل الاتفاقات السابقة بين لبنان واسرائيل.

٢ — كل المرفقات بهذا الاتفاق (أي الملحق، والذيل، والخريطة، والمحاضر التفسيرية المتفق عليها) تعتبر جزءا من الاتفاق لا يتجزأ.

٣ — يمكن تعديل هذا الاتفاق أو تنقيحه او استبداله برضى الفريقين.

المادة ١١

١ — الخلافات الناجمة عن تفسير هذا الاتفاق او تطبيقه تجري تسويتها بطريقة التفاوض ضمن لجنة الاتصال المشتركة. وكل خلاف من هذا النوع يتعذر تسويته بهذه الطريقة يجري اخضاعه لاجراء متفق عليه بغية الفصل فيه في صورة نهائية.

٢ — على رغم أحكام الفقرة الأولى، يفصل في اطار لجنة الترتيبات الأمنية في الخلافات الناجمة عن تفسير الملحق أو تطبيقه، وإذا تعذر ذلك فتحال هذه الخلافات، بناء على طلب أحد الفريقين، على لجنة الاتصال المشتركة لحلها بالتفاوض.

المادة ١٢

يبلغ هذا الاتفاق إلى أمانة الامم المتحدة لتسجيلها وفقا لأحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الأمم المتحدة.

وضع هذا الاتفاق في خلدة وكريات شمونة في اليوم.... من أيار ١٩٨٣، على ثلاث نسخ بأربعة نصوص رسمية باللغات العربية والعبرية والفرنسية والانكليزية. في حال أي اختلاف في التفسير يعتمد على حد سواء النصان الانكليزي والفرنسي.

عن حكومة الجمهورية اللبنانية

عن حكومة دولة اسرائيل

بشهادة عن الولايات المتحدة الاميركية.

ملحق

الترتيبات الأمنية

١ ــ المنطقةالأمنية:

أ ــ تقام منطقة أمنية تتعهد الحكومة اللبنانية أن تنفذ ضمنها الترتيبات الأمنية المتفق عليها بموجب هذا الملحق.

ب ــ يحد المنطقة الامنية وفقا لما هو مرسوم على الخريطة المرفقة بهذا الملحق من الشمال خط يشكل «الخط أ» على الخريطة المرفقة ومن الجنوب والشرق خط الحدود اللبنانية الدولية.

٢ ــ الترتيبات الأمنية:

تتخذ السلطات اللبنانية تدابير امنية خاصة لكشف النشاطات العدائية ومنعها، كما لكشف ومنع ادخال او تحرك المسلحين غير المسموح لهم وكذلك ادخال أو تحرك التجهيزات العسكرية غير المسموح بها في المنطقة الأمنية أو عبرها. في ما عدا المستثنيات المنصوص عليها، تطبق على حد سواء في المنطقة الأمنية كاملة الترتيبات الأمنية الآتية:

أ ــ القوات والعناصر المسلحة المنظمة الوحيدة المسموح بها في المنطقة الامنية هي الجيش اللبناني، والشرطة اللبنانية، قوى الأمن الداخلي والقوات اللبنانية المساعدة (الانصار) المنشأة تحت سلطة الحكومة اللبنانية المطلقة، وذلك باستثناء ما هو مبين في مكان آخر من هذا الملحق.

للجنة الترتيبات الأمنية أن توافق على أن تتمركز في المنطقة الأمنية عناصر مسلحة شرعية لبنانية أخرى مشابهة للانصار.

ب ــ لا حدود عددية لقوى الشرطة اللبنانية وقوات الأمن الداخلي والانصار المتمركزة في المنطقة الأمنية. وتزود هذه القوات والعناصر بالأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة والفردية، كما تجهز قوى الأمن الداخلي أيضاً بمصفحات الاستطلاع أو مصفحات المغاوير وفقا لما هو مبين في الذيل.

ج ــ يتمركز في المنطقة الأمنية لواءان اثنان من الجيش اللبناني، يكون أحدهما لواء اقليميا منطقة عمله هي البقعة الممتدة من الحدود اللبنانية ــ الاسرائيلية حتى «الخط ب» المرسوم على الخريطة المرفقة. ويكون اللواء الثاني نظاميا اعتياديا متمركزا في البقعة الممتدة من «الخط ب» حتى «الخط أ». ولهذين اللواءين أن يحملا الأسلحة العضوية والتجهيزات المدرجة في الذيل. ويمكن تبعا لتنسيق تضع اصوله لجنة الترتيبات الأمنية، نشر وحدات إضافية، مجهزة طبقا لذيل هذا الاتفاق، في المنطقة الأمنية لأغراض تدريبية، بما في ذلك تدريب المجندين، أو في الحالات العملانية الطارئة.

د ــ تدمج الوحدات المحلية القائمة حاليا، كما هي، في الجيش اللبناني، وفقا لأنظمة الجيش اللبناني المرعية الاجراء. كما يدمج الحرس المدني المحلي القائم حاليا في «الانصار» ويمنح الصفة المناسبة، بموجب القوانين اللبنانية، لتمكينه من متابعة حراسة القرى في المنطقة الأمنية. تبدأ عملية بسط السلطة اللبنانية على هذه الوحدات وعلى الحرس المدني، تحت إشراف اللجنة، فور بدء سريان مفعول الاتفاق، وتنتهي قبل اتمام الانسحاب الاسرائيلي من لبنان.

هـ ــ لوحدات الجيش اللبناني أن تحتفظ، ضمن المنطقة الأمنية، بأسلحتها العضوية المضادة للطائرات، وفقا لما هو مبين في الذيل، أما خارج المنطقة الأمنية فيمكن لبنان أن ينشر صواريخ الدفاع الجوي الكتفية وتلك ذات المدى المنخفض والمتوسط. للجنة الترتيبات الأمنية، بعد انقضاء فترة ثلاث سنوات من تاريخ سريان مفعول هذا الاتفاق، أن تعيد النظر، بناء على طلب أي من الفريقين، في الترتيب المتعلق بالبقعة الواقعة خارج المنطقة الأمنية.

و ــ التجهيزات الالكترونية العسكرية في المنطقة الأمنية هي تلك المبينة في ذيل هذا الاتفاق. ويخضع نشر الرادارات الأرضية ضمن عشرة كيلومترات من الحدود اللبنانية ــ الاسرائيلية لموافقة لجنة الترتيبات الأمنية، أما في مجمل المنطقة الامنية فتنشر هذه الرادارات بحيث لا يتجاوز قطاع استكشافها الحدود اللبنانية ــ الاسرائيلية. لا يطبق هذا الشرط على الرادارات الخاصة بمراقبة الطيران المدني أو النقل الجوي.

ز ــ يسري الشرط المذكور في الفقرة (هـ) على الصواريخ المضادة للطائرات المحمولة على مراكب القوات البحرية اللبنانية. ضمن المنطقة الامنية، للبنان أن ينشر وحدات بحرية، وأن يقيم ويصون القواعد البحرية او الانشاءات الساحلية الأخرى التي يقتضيها إنجاز المهمة البحرية. تحدد انشاءات الشواطىء في المنطقة الامنية وفقا لما هو مبين في ذيل هذا الاتفاق.

ح ــ تلافيا لامكان وقوع حوادث ناجمة عن التباس في الهوية، تعطي السلطات العسكرية اللبنانية اشعاراً مسبقا بجميع الرحلات الجوية من اي نوع كانت فوق المنطقة الأمنية، وذلك وفقا لأصول تضعها لجنة الترتيبات

الأمنية، لا تشترط الموافقة على هذه الرحلات.

ط ــ (١) أن القوات والأسلحة والتجهيزات العسكرية التي يمكن ادخالها، أو مركزتها أو تخزينها في المنطقة الأمنية أو نقلها عبر هذه المنطقة هي تلك المذكورة في هذا الملحق وذيله.

(٢) لا يمكن إقامة أو الاحتفاظ بانشاءات مساعدة أو تجهيزات أو هيكليات في المنطقة الأمنية من شأنها أن تساعد على إعداد أسلحة غير مسموح بها بموجب هذا الملحق أو ذيله.

(٣) يعمل بهذا التحديد أيضا حيثما يكون في هذا الملحق شرط يتعلق ببقع خارج المنطقة الأمنية.

٣ ــ لجنة الترتيبات الأمنية:

أ ــ تنشأ لجنة ترتيبات أمنية في إطار لجنة الاتصال المشتركة.

ب ــ تتألف لجنة الترتيبات الأمنية من مندوبين لبنانيين واسرائيليين متساوين في العدد برئاسة ضباط قادة. يشترك مندوب الولايات المتحدة في اجتماعات اللجنة بناء على طلب أي من الفريقين.

تتخذ قرارات لجنة الترتيبات الأمنية باتفاق الأفرقاء.

ج ــ تشرف لجنة الترتيبات الأمنية على تنفيذ الترتيبات الأمنية إضافة إلى البرنامج الزمني والصيغ وسائر التدابير المتعلقة بالانسحابات المبينة في الاتفاق وفي هذا الملحق.

لهذه الغاية، وباتفاق الأفرقاء، تتولى اللجنة:

(١) الاشراف على تنفيذ تعهدات الأفرقاء طبقا للاتفاق ولهذا الملحق.

(٢) انشاء اللجان المشتركة للتحقق وإداراتها كما هو مفصل أدناه.

(٣) الاهتمام والسعي لحل أي مشكلة ناجمة عن تنفيذ الترتيبات الأمنية الواردة في الاتفاق وفي هذا الملحق، ومناقشة أي انتهاك ترفع اللجان المشتركة للتحقق تقريرا به إليها، أو اي شكوى يقدمها أحد الأفرقاء في صدد انتهاك ما.

د ــ تعالج لجنة الترتيبات الأمنية أية شكوى تقدم إليها في فترة لا تتعدى ٢٤ ساعة من وقت تقديمها.

هـ ــ تعقد لجنة الترتيبات الأمنية اجتماعاتها مرة على الأقل كل اسبوعين في لبنان واسرائيل مداورة. في حال طلب أحد الفريقين عقد اجتماع خاص، فإن الاجتماع يعقد خلال ٢٤ ساعة من الطلب. ينعقد أول اجتماع في خلال ٤٨ ساعة من بدء سريان مفعول الاتفاق.

و ــ اللجان المشتركة للتحقق:

(١) تنشىء لجنة الترتيبات الأمنية لجانا مشتركة للتحقق (لبنان ــ اسرائيل) تكون تحت أمرتها وتتألف من عدد متساو من الممثلين عن الفريقين.

(٢) تتحقق اللجان في صورة دورية من تنفيذ أحكام الترتيبات الأمنية. ترفع اللجان فوراً إلى لجنة الترتيبات الأمنية تقريرا بأي انتهاك مؤكد كما تتثبت من أن الانتهاك قد صحح.

(٣) عندما يطلب منها ذلك، تكلف لجنة الترتيبات الأمنية، لجنة تحقق مشتركة، تفحص الترتيبات الأمنية الحدودية المتخذة طبقا للمادة الرابعة من هذا الاتفاق، في الجانب الاسرائيلي من الحدود الدولية.

(٤) تتمتع اللجان المشتركة للتحقق بحرية التنقل على الأرض وفي البحر والجو حسب الضرورة اللازمة لانجاز مهماتها ضمن المنطقة الأمنية.

(٥) تحدد لجنة الترتيبات الأمنية جميع الترتيبات التقنية والادارية المتعلقة بتادية لجان التحقق المشتركة لوظائفها، بما في ذلك أصول عملها وعددها وتشغيلها وأسلحتها، وتجهيزاتها.

(٦) لدى تقديم تقريرا إلى لأنة الترتيبات الأمنية أو لدى تثبيت لجان التحقق المشتركة من صحة شكوى أحد الفريقين، يقوم الفريق المعني فورا وعلى أية حال في مدة أقصاها ٢٤ ساعة من تاريخ التقرير أو التثبت، بتصحيح المخالفة، وبابلاغ ذلك فوراً إلى لجنة الترتيبات الأمنية. حالما يصلها الابلاغ، تتأكد لجان التحقق المشتركة من أن المخالفة صححت.

(٧) يتم إنهاء مهمة لجان التحقق المشتركة في مهلة تسعين يوما تلي اشعارا بذلك يتقدم به أي من الفريقين في أي وقت يختاره بعد مضي سنتين على بد سريان هذا الاتفاق. توضع قبل هذا الانهاء ترتيبات بديلة للتحقق بواسطة لجنة الاتصال المشتركة أن تقرر في أي وقت أنه لم يعد هناك حاجة إلى مثل تلك الترتيبات.

ز ــ تعمل لجنة الترتيبات الأمنية على إقامة اتصالات عملية وسريعة بين الفريقين على طول الحدود، وذلك تفاديا للحوادث عبر التنسيق بين القوات الموجودة على الطبيعة.

٤ ــ من المتفاهم عليه أن الحكومة اللبنانية قد تطلب من مجلس الأمن في الأمم المتحدة اتخاذ التدابير

المناسبة لوضع وحدة من «اليونيفيل» في منطقة صيدا، وذلك لمساندة الحكومة اللبنانية والقوات اللبنانية في تثبيت سلطتها، وتأمين الحماية اللازمة في مناطق المخيمات الفلسطينية. طوال مدة ١٢ شهرا، يكون من حق الوحدة المتمركزة في منطقة صيدا، أن ترسل، بناء على طلب الحكومة اللبنانية وبعد ابلاغ لجنة الترتيبات الأمنية، مجموعات من عناصرها لتفقد ومراقبة مناطق المخيمات الفلسطينية في جوار صيدا وصور. وتبقى السلطات اللبنانية مسؤولة وحدها عن الأمن ووظائف الشرطة. كما تعمل الحكومة اللبنانية على تطبيق أحكام هذا الملحق في صورة كاملة، في هذه المناطق.

٥ ــ بعد انقضاء ثلاثة أشهر على انجاز انسحاب جميع القوات الاسرائيلية من لبنان، تجري لجنة الترتيبات الأمنية تقويما شاملا لملاءمة الترتيبات المبينة في هذا الملحق، بقصد تحسينها.

٦ ــ انسحاب القوات الاسرائيلية:

أ ــ في خلال مهلة تراوح بين ثمانية أسابيع واثني عشر اسبوعا من سريان مفعول الاتفاق، تكون جميع القوات الاسرائيلية قد انسحبت من لبنان، انسجاما مع هدف لبنان الرامي إلى انسحاب جميع القوات الخارجية من لبنان.

ب ــ تؤمن القوات المسلحة اللبنانية وقوات الدفاع الاسرائيلية اتصالا مستمرا في أثناء الانسحاب وتتبادلان جميع المعلومات عبر لجنة الترتيبات الأمنية، كما تتعاون قوات الدفاع الاسرائيلية في أثناء انسحابها مع القوات المسلحة اللبنانية وذلك لتسهيل عودة وتوطيد سلطة الحكومة اللبنانية فيما القوات المسلحة الاسرائيلية تجري انسحابها.

المحاضر التفسيرية المتفق عليها

المادة الرابعة: الفقرة ٤

يؤكد لبنان أن القانون اللبناني يتضمن كل التدابير الضرورية لتأمين تطبيق هذه الفقرة.

المادة السادسة:

من دون المساس بما ينص عليه الملحق في صدد المنطقة الأمنية، من المتفق عليه أن الطائرات العسكرية غير المقاتلة التابعة لدولة أجنبية، التي تقوم بمهمة غير عسكرية، لن تعتبر من التجهيزات العسكرية.

المادة السادسة:

من المتفق عليه أنه، في حال قيام أي اختلاف حول ما إذا كانت تعتبر دولة معينة «معادية»، وفق ما ورد في المادة السادسة من الاتفاق، فان المحظورات المفروضة في المادة السادسة تطبق على أي دولة ليست لها علاقات ديبلوماسية مع الفريقين.

المادة الثامنة: (أ ــ ب)

من المتفق عليه أن لجنة الاتصال المشتركة، ستبدأ، بناء على طلب من أي من الفريقين، في بحث مسألة حقوق الملكية التي يطالب بها مواطنو أي من الفريقين في أراضي الفريق الآخر.

المادة الثامنة: (أ ــ ح)

من المتفاهم عليه أن على كل فريق أن يقدم اثباتات للفريق الآخر حول ما إذا كان أحد عناصره يقوم بمهمة رسمية او يؤدي وظائف رسمية في أي وقت معين.

المادة الثامنة: (٢)

من المتفق عليه أن المفاوضات ستختتم بالسرعة الممكنة.

المادة التاسعة:

من المتفاهم عليه أن هذه الأحكام ستطبق، مع تغيير ما يتوجب تغييره، على الاتفاقات التي تتم بين الفريقين وفقا للمادة الثامنة، الفقرة الثانية.

المادة الحادية عشرة:

من المتفق عليه أن يطلب الفريقان من الولايات المتحدة الأميركية أن تساعد على الحل السريع للخلافات الناجمة عن تفسير هذا الاتفاق أو تطبيقه.

المادة الحادية عشرة:

من المتفق عليه أن عبارة «اجراء متفق عليه للفصل في صورة نهائية» معناها الدور المتفق عليه الذي يتولاه فريق ثالث والذي يؤدي إلى حل للخلاف يكون ملزما للأفرقاء.

الملحق

الفقرة (١ ـ ب)

من المتفق عليه أنه في ذلك الجزء من جبل الباروك، المشار إليه على الخريطة المرفقة بالملحق، لا تقام سوى انشاءات المواصلات اللاسلكية المدنية، كالمعدات التلفزيونيةوالرادارات الخاصة بمراقبة الملاحة الجوية.

تطبق على هذه المنطقة القيود نفسها المطبقة على العتاد والأسلحة المفصلة في الذيل المرفق بالملحق.

الفقرة (٢ ـ د)

تؤكد الحكومة اللبنانية قرارها أن يحتوي اللواء الاقليمي، الذي انشىء في ٦ نيسان ١٩٨٣ والمذكور في الفقرة الفرعية «ج»، الوحدات المحلية القائمة التي شكلت في حجم قريب من حجم لواء، إضافة إلى عديد من الجيش اللبناني مستخرج من سكان المنطقة الأمنية، وذلك بما يتفق مع أنظمة الجيش اللبناني المرعية الاجراء. يتولى هذا اللواء الاقليمي شؤون الأمن في المنطقة الممتدة من الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية إلى الخط ب» المرسوم على الخريطة المرفقة بالملحق. وتخضع لسلطة قائد اللواء كل القوات والعناصر المسلحة اللبنانية والأنصار. يعاد النظر في تنظيم الوحدات المحلية القائمة، تحت اشراف لجنة الترتيبات الأمنية بما يتفق مع الجدول التنظيمي للواء الاقليمي الوارد في الملحق.

الفقرة (٢ ـ ز)

١ ـ يستمر لبنان في فرض الحظر القائم حاليا على الملاحة المدنية في منطقة تمتد من ٣٣ درجة و ١٥ دقيقة شمالا و ٣٥ درجة و ١٢,٦ دقيقة شرقا إلى ٣٣ درجة و ١٥ دقيقة شمالا و ٣٥ درجة و ٨,٢ دقائق شرقا، وإلى ٣٣ درجة و ٥,٥ دقائق شمالا و ٣٥ درجة و ٦,١ دقائق شرقا، وإلى ٣٣ درجة و ٥,٥ دقائق شمالا و ٣٥ درجة و ١,٤ دقيقة شرقا.

٢ ـ بغية تفادي الاشكالات تكون هناك اتصالات مستمرة بين القيادة الجنوبية للبحرية اللبنانية والبحرية الاسرائيلية لتبادل المعلومات حول السفن المشتبه فيها. وتحدد لجنة الترتيبات الأمنية أسلوب تبادل هذه المعلومات.

٣ ـ تتدخل البحرية اللبنانية بسرعة للتأكد من هوية تلك السفن المشتبه فيها. وفي الحالات الطارئة، تتم اتصالات مباشرة بين القطع البحرية.

الفقرة (٣ ـ و)

١ ـ تقوم لجان التحقق المشتركة بمهماتها وهي على بينة من أن المسؤولية عن العمليات العسكرية وعمليات الشرطة وسائر عمليات المراقبة والتفتيش هي من صلاحيات القوات المسلحة اللبنانية والشرطة وسائر المؤسسات اللبنانية المختصة، وليست من صلاحيات لجان التحقق المشتركة.

٢ ـ على لجان التحقق المشتركة إذا كشفت عن دلائل وجود مخالفة أو احتمال مخالفة للترتيبات المتفق عليها، أن تتصل بالسلطات اللبنانية عبر «مراكز التحقق من الترتيبات الأمنية» المنشأة وفقا للمحضر التفسيري للفقرة الثالثة (و ـ ٥) من الملحق لتأمين أن تتخذ السلطات اللبنانية في الوقت المناسب التدبير الملائم لتفادي المخالفة وقمعها.

تتأكد لجان التحقيق من أن الاجراءات المتخذة قد صححت المخالفة وتقدم تقريرا بالنتائج إلى لجنة الترتيبات الأمنية.

٣ ـ تبدأ لجان التحقق المشتركة نشاطات محدودة في أقرب وقت ممكن بعد بدء العمل بالاتفاق بغية مراقبة تنفيذ ترتيبات انسحاب جيش الدفاع الاسرائيلي. أما سائر نشاطات التحقق والمراقبة التي يسمح الملحق للجان بممارستها، فإنها تبدأ مع الانسحاب النهائي لجيش الدفاع الاسرائيلي.

٤ ـ تقوم لجان التحقق المشتركة بتحققات يومية إذا دعت الحاجة، وذلك ليل نهار. وتتم اعمال التحقق في البر والبحر والجو.

٥ ـ يتولى ضابط لبناني قيادة كل لجنة من لجان التحقق المشتركة، ويأخذ الضابط في الاعتبار الطابع المشترك خلال القيام بمهمات التحقق.

٦ ـ خلال القيام بمهمة ما، يتمتع قائد لجنة التحقق المشتركة بسلطة استنسابية في مواجهة اية حال غير متوقعة تتطلب عملا فوريا. ويفيد قائد اللجنة عن اية حال كهذه وعن التدبير المتخذ.

٧ ـ لا تستخدم لجان التحقق المشتركة القوة إلا في حال الدفاع عن النفس.

٨ ـ من الأمور التي تقررها لجنة الترتيبات الأمنية نمط عمل لجان التحقق المشتركة، وتسليحها وتجهيزها، وسائل نقلها، والبقاع التي ستعمل فيها، وذلك وفق أحكام المنطق والاعتبارات العملية وتحدد لجنة الترتيبات الأمنية

نمط العمل العام مع الاخذ في الاعتبار ضرورة تفادي كل ما من شأنه أن يلحق خللا بالحياة العادية للمدنيين، وكذلك ضرورة تفادي جعل اللجان أهدافا للهجوم.

٩ ــ لا يمكن أن يتجاوز الحد الاقصى لعدد اللجان المشتركة العاملة في آن واحد الثماني لجان.

الفقرة (٣ ــ و (٥))

١ ــ تقيم لجنة الترتيبات الأمنية ضمن المنطقة الأمنية مركزين للتحقق من الترتيبات الأمنية. تعين لجنة الترتيبات الأمنية الموقع المحدد للمركزين، مع مراعاتها لمبدأ أن يكون المركزان في جوار حاصبيا وميفدون وخارج المناطق الآهلة.

٢ ــ تحت الاشراف العام للجنة الترتيبات الأمنية، يكون هدف كل من المركزين ما يأتي:

أ ــ مراقبة وتوجيه لجان التحقق المشتركة العاملة في القطاع المعين للمركز في المنطقة الأمنية، والاشراف عليها.

ب ــ أن يستخدم كمركز اتصالات مرتبط بلجان التحقق المشتركة وبمراكز القيادة المعنية.

ج ــ أن يستخدم كمحل اجتماع في لبنان للجنة الترتيبات الأمنية.

د ــ يقوم، من قبل لجنة الترتيبات الأمنية، بتلقي وتحليل وبلورة كل المعلومات الضرورية لعمل لجان التحقق المشتركة.

٣ ــ الترتيبات العملانية:

أ ــ يكون المركزان بقيادة ضباط من الجيش اللبناني.

ب ــ يعمل المركزان على مدى ٢٤ ساعة في اليوم من دون انقطاع.

ج ــ تقرر لجنة الترتيبات الأمنية العدد المحدد للعاملين في كل مركز.

د ــ يتمركز الاسرائيليون العاملون في المركزين ضمن الأراضي الاسرائيلية خارج أوقات عملهم.

هـ ــ تتولى الحكومة مسؤولية تأمين الأمن والدعم اللوجستي للمركزين.

و ــ تنطلق لجان التحقق المشتركة في مهماتها اعتياديا من المركزين بعد تلقي التعليمات المناسبة، ثم تنهي مهماتها بتقديم تقريرها إلى المركزين.

ز ــ يشتمل كل مركز على غرفة أوضاع، ومعدات اتصال، وتسهيلات لاجتماعات لجنة الترتيبات الأمنية، وغرفة لاعطاء التعليمات وتلقي تقارير لجان التحقق.

الفقرة (٣ ــ ز)

من أجل تفادي الحوادث وتسهيل التنسيق بين القوى على الأرض تشمل «الاتصالات العملية والسريعة» اتصالات مباشرة بالراديو والهاتف بين القادة العسكريين المعنيين وأركانهم في منطقة الحدود المباشرة، وكذلك المقابلات الوجاهية.

ذيل

يمكن القوات المسلحة اللبنانية، طبقا لأحكام الملحق أن تحمل أو تدخل أو تمركز أو تخزن أو تنقل عبر المنطقة الأمنية جميع الأسلحة والعتاد العضوي لكل لواء اعتيادي من القوات المسلحة اللبنانية. لا تكون محظرة بموجب هذا الذيل الأسلحة الفردية والاجمالية، بما في ذلك الأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة، التي توجد عادة في حوزة وحدة المشاة المؤللة.

١ ــ انظمة الأسلحة المدرجة أدناه والعضوية حاليا لكل لواء في المنطقة الأمنية، يكون مسموحا بها وفقا للأعداد المبينة:

دبابات:

ــ دبابة عدد (٤٠) أربعين.

ــ عربة اخلاء متوسط عدد (٤) أربعة.

سيارات مصفحة:

ــ ا م ل ــ ٩٠/ سلادين/ الخ عدد (١٠) عشرة.

حاملات جند مصفحة:

ــ م ١١٣ أ ١/ف س س ــ ل عدد (١٢٧) مابة وسبع وعشرين حاملة. زائد (٤٤) اربعا وأربعون حاملة من صنف م ١١٣.

مدفعية/ هواوين:

ـ قـذاف مقطور ١٥٥ ملم عدد (١٨) ثمانية عشر (ايضاً ١٠٥ ملم/ ١٢٢ ملم).
ـ هاون ١٢٠ ملم عدد (١٢) اثني عشر.
ـ هاون ٨١ ملم عدد (٢٧) سبعة وعشرين (محمولة على حاملات هاون مسرفة م ١٢٥).
اسلحة مضادة للدروع:
ـ ار.ب.ج. عدد (١١٢)ماية واثني عشر.
ـ اسلحة مضادة للدروع عدد (٣٠) ثلاثين (مدافع ١٠٦ ملم عديمة الارتداد/ صواريخ تو/ صواريخ ميلان).
اسلحة الدفاع الجوي:
ـ مدافع عيار ٤٠ ملم وما دون عدد (١٢) اثني عشر (غير موجهة بواسطة الرادار).
٢ ـ عتاد الاشارة في اللواء.
ـ جهاز ان/ح. ر. ث. ـ ١٦٠ عدد (٤٨٢) اربعماية واثنين وثمانين.
ـ جهاز آن/ ف. ر. ث. ـ ٤٦ عدد (٧٤) أربعة وسبعين.
ـ جهاز ان/ ف. ر .ث. ـ ٤٧ عدد (١٦) ستة عشر.
ـ جهاز ان/ ف. ر. ث. ـ ٤٩ عدد (٩) تسعة.
ـ جهاز ج. ر. ا. ـ ٣٩ عدد (٤٣) ثلاثة واربعين.
ـ جهاز ت. ا. ـ ٣١٢ عدد (٥٣٩) خمسماية وتسعة وثلاثين.
ـ موزع س.ب. ـ ٢٢ عدد (٢٧) سبعة وعشرين.
ـ موزع س.ب. ـ ٩٩٣ عدد (٨) ثمانية.
ـ جهاز ان/ ج. ر. ث. ـ ١٠٦ عدد (٤) اربعة.
٣ ـ عتاد الرصد في اللواء.
ـ رادارات تحديد مكان الهاون.
ـ رادارات تحديد مكان المدفعية.
ـ رادارات رصد الأرض.
ـ اجهزة المراقبة الليلية.
ـ أجهزة التجسس الأرضية غير المدارة عن قرب.
٤ ـ انسجاماً مع تدابير الملحق، تكون السيارات المصفحة التابعة لقوى الأمن الداخلي وفقاً للآتي:
سيارات مصفحة مدولبة ذات مدافع عيارها حتى الـ ٤٠ ملم عدد (٢٤) أربع وعشرين.
٥ ـ انسجاماً مع تدابير الملحق لن تكون هناك تحديدات على المنشآت الساحلية في المنطقة الامنية باستثناء ما يعود إلى الفئات الأربع الآتية:
ـ رادار ساحلي لمراقبة البحر عدد (٥) خمسة.
ـ مدافع دفاع ساحلي عدد (١٥) خمسة عشر من عيار ٤٠ ملم أو ادنى.
ـ مدافع ساحلية للدفاع الجوي عدد (١٥) خمسة عشر من عيار ٤٠ ملم أو ادنى. (غير موجهة بواسطة الرادار).
ـ صاروخ بر/ بحر: لا شيء.
٦ ـ إن تنظيم كل من لواء المشاة واللواء الاقليمي في المنطقة الامنية هو كالآتي:
قيادة اللواء وسرية القيادة ضباط: ١٤ رتباء وافراد/ ١٧٣.
ثلاث كتائب مشاة ضباط ٣١ في كل كتيبة رتباء وافراد ٦٥٤ (في كل كتيبة).
كتيبة مدفعية ضباط: ٣٩ رتباء وافراد ٦٧٢.
كتيبة مدرعات ضباط: ٣٧ رتباء وافراد ٥٧٩.
(ثلاث سرايا مدرعات زائد سرية استكشاف).
كتيبة لوجستية ضباط: ٢٦ رتباء وافراد ٣٤٤.
سرية هندسة ضباط: ٦ رتباء وافراد: ١٢٥.
سرية مضادة للدروع ضباط: ٤ رتباء وافراد ١١٧.
سرية مدفعية مضادة للطائرات ضباط: ٤ رتباء وافراد: ١٤٦.
المجموع: ٤٣٤١ ضباط: ٢٢٣ رتباء وافراد: ٤١١٨.



كتب وردتنا

□ **عمر الزعني ـــ حكاية شعب**
منشورات دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت
الطبعة الأولى ١٩٧٩ .... فاروق الجمال

□ **الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم**
دار الغرب الاسلامي ـــ بيروت ١٩٨١ .... الفرد بل
ترجمة: عبد الرحمن بدوي

□ **حوار حول عبد الناصر**
دار الآفاق الجديدة ـــ مركز الدراسات العربية طبعة أولى (١٤٠٢هـ ـــ ١٩٨٢م) .... روبرت ستيفنس
محمد عودة
عبد المجيد مزيد

□ **لبنان والصيغة المأساة**
منشورات دار الآفاق الجديدة (١٤٠٢هـ ـــ ١٩٨٢م) .... عبد العزيز قباني

□ **الشياطين الحمر والمسيرة الخضراء**
دار الآفاق الجديدة (١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م) .... غالب حمزة أبو الفرج

□ **مشكلات الطفولة والمراهقة**
منشورات دار الآفاق الجديدة (١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٢م) .... د. ميخائيل ابراهيم أسعد
د. مالك سليمان مخول

□ **صحة العائلة مع ٨٠٠ سؤال وجواب**
دار الآفاق الجديدة (١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٢م) .... تعريب: اميل خليل بيدس

□ **جبل طارق والعرب...**
المكتبة الصغيرة (٢) الرياض (١٣٩٧ ـــ ١٩٧٧) .... عبد العزيز الرفاعي

□ **مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي**
كلمات المنفلوطي
منشورات دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت .... دراسة وتقديم:
د. جبرائيل سليمان جبور

□ **العلاقة المتبادلة بين العبقرية والجنون**
منشورات دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت .... سمير عبده

□ **الشيخ احمد رضا والفكر العاملي**
منشورات دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت .... د. فايز ترحيني
قدم له: د. فيكتور الكك

معهد الإنماء العربي

التذكرة الحمدونية

تصنيف

ابن حمدون

محمد بن الحسن بن محمد بن علي

تحقيق

الدكتور إحسان عباس

المجلد الأول

التراث العربي

بيليد - اندرياس باباندريو - تياري دي بوسي - جان لاكوتير -
د - غسان تويني - لطفي الخولي - محمد سيد احمد - الصادق المه
يا رايت - بول بالتا - بول جابر - جيمس ج. ابو رزق - روجيه غا
بال ابو جودة - الشاذلي القليبي - صدر الدين اغا خان - هشام ش
شحادة - روبيرت ستيفنس - خليل حسن خليل - محمد عصفور -
و - جيراردو خورخي شميس - ريمون اده - نديم دمشقية -
مان - يحيى الجمل - بيار فايس - فيليب روندو - ميشال اكيلي -
ط - غسان سلامة - عصام نعمان - هاني فارس - عصام النقيب

بيليد - اندرياس باباندريو - تياري دي بوسي - جان لاكوتير -
د - غسان تويني - لطفي الخولي - محمد سيد احمد - الصادق المه
يا رايت - بول بالتا - بول جابر - جيمس ج. ابو رزق - روجيه غا
بال ابو جودة - الشاذلي القليبي - صدر الدين اغا خان - هشام ش
شحادة - روبيرت ستيفنس - خليل حسن خليل - محمد عصفور -
و - جيراردو خورخي شميس - ريمون اده - نديم دمشقية -
مان - يحيى الجمل - بيار فايس - فيليب روندو - ميشال اكيلي -



حوليات سياسية

السنة الاولى - العدد الرابع ١٩٨٢ - ١٩٨٣

2, rue Christine, 75006 Paris

مَوطنها لبـــنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة

جُذورهَا راسِخة في الشرق الأوسَط

وأغصَانها ممتدّة في أرجَاء الدّنيا

